

بين أبو الريش وجنينة ناملش

يوسف السباعي

الناشر
مكتبة مصر
توزيع كامل صديق، القاهرة
٥٩٠٨٩٦٠٠

مؤلفات
يوسف السباعي

قصص
قصيرة

بين أبو الريش وجثينة ناهليش

کتاب عربی
(شراء)

رقم التسجيل 71712

SENTEÇA ALFAMBRERA
de 2014

الإهداء

إلى رفيقى الصبا ...

وزميلي الطفولة ...

إلى أخوى .. (محمود) و (أحمد)

أول من جال معى :

بين أبو الريش وجنيّة ناميش

« يوسف السباعى »

مقدمة

هذه جولة بين « أبو الريش وجنية ناميش » وما حولهما ... جولة في قصص ، فقد تبين أن القصة أضحت فرضا واجبا على .. وأن القارئ يأبى أن يقبل منى إلا قصة ... بل إنه — ساعده الله — مقتنع تمام الاقتناع بأننى لا أعرف غير القصة ... ولا أجيد في غير القصة ... فقد كتبت ذات مرة مقالا نقديا في الغناء ، فجاءنى خطاب من أحد القراء يدهش فيه كيف أكتب في الغناء وأنا قصصى ! . ولن يضيرنى ذلك في الواقع ... لأننى أحب كتابة القصة ولأننى أستطيع أن أضع كل ما أود قوله من نقد وأفكار وخواطر في أية قصة ... رغم أن القصة تحتاج إلى جهد في حبكها أشق كثيرا من مجرد السرد العادى للخواطر . وهكذا وجدت نفسى لا أستطيع أن أجول بالقارئ في مرتع صباى إلا إذا أغريته بقصة ... حتى لا يمل السير معى ... وحتى تلهيه القصة إذا لم يكن من غواة التجوال بين الشوارع والأزقة .

وثمة سبب آخر يزج بـ « جنية ناميش » فى قصصى ... وهو سبب عكسى للسبب الأول .

فبينما نجد أن التجوال فى « جنية ناميش » هو الدافع إلى الكتابة ... وأن القصة ذاتها ليست سوى « برشامة » أضع فيها الجولة ... نجد فى أحيان أخرى أن فكرة القصة قد تكون حاضرة .. وإنى لا أكاد أجلس للكتابة لإبرازها إلى حيز الوجود باحثا لها عن مكان وزمان أجعلها فيه وأجرى حوادثها به حتى أجد ،

« جنينة ناميش » قد أطلت من رأسى ... وإذا بالسبل قد ضاقت بى إلا عن السد البرائى ، والمنيرة ، والسيدة ، وزين العابدين ... وإذا بى أضع القصة برغمى فى هذه الأمكنة الرابضة من قديم العهد فى الذاكرة .

ويدولى أن هذه المنطقة من القاهرة ... أعنى منطقة « السيدة زينب » وما حولها من سيدى زينهم .. إلى الماوردى ، إلى الناصرية ، إلى درب الجماميز .. كانت موطننا لجميع المصريين ... فما قابلت إنسانا إلا يعرف حوض « سقى الحمير » فى ميدان المديح ... ويذكر جيدا « الأبوة » الموصلة من حارة السيدة إلى جنينة ناميش وينبئنى أنى أذكره بأيام صباه ... أيام مدرسة محمد على ، وشارع الشيخ سلامة ، وسيدى الحبيبي ، وسيدى الطيبي .

ولقد كان أول من هلل وكبر لهذه الجولة ... الأستاذ الفنان « الحسين فوزى » ... فقد أصر على مصاحبتي بريشته ليسجل للتاريخ صورا مصرية أصيلة ... ويبرز لوحات من صميم الحياة المصرية ... ولم يكن ذلك عليه بالأمر العسير ... فقد وجدته أكثر منى حنينا إلى هذا الحى وأشد منى معرفة به ، وقال لى مفاخرنا : إذا كنت أنت ربيب جنينة ناميش ... فأنا ربيب البغالة .

ولا أظننى قد وفيت الحى حقه بهذه الأقاصيص ... ولا استنقدت بها كل ما فى الذاكرة عنه ... ولا أظننى إلا عائدا إليه مرة أخرى .. فما زالت ذكرياته تملأ رأسى ... ولست بمستريح حتى أسكبها على الورق .

« يوسف السباعى » .

في أبو الريش

كانت حياته — على رغم أم سيد — محتملة ، حتى كان ذات يوم ، مات الشيخ زكى وأضحى ضريح « أبو الريش » بلا خادم ، ونقص أولياء الله الصالحون واحدا ، وبدا « لأم سيد » أن كرسى الولاية الشاغر يجب ألا يضيع من العائلة الصالحة ، وأن الشيخ « على لوز » قد سنحت له فرصة ذهبية يجب عليه انتهازها ...

تبدأ القصة في حجرة في الدور الأرضى بحارة الغزالات بالمديح ، في أحد جوانبها شباك من الحديد يطل على الشارع يبدو المارة من خلاله رائحين غادين ، وتتصاعد منه أصوات الباعة ورنين طاسات العرقسوس ، وفي الواجهة باب يؤدي إلى فناء الدار بدا منه بضعة أطفال يرحون ويلعبون النحلة ، وفي الجانب الآخر باب يؤدي إلى المطبخ .

وعلى الجدران علفت لوحات قرآنية وحكمية ، مثل : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ و ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ .

أما محتويات الحجرة فلا تزيد عن كنية ذات مساند ، وبوفيه عتيق ، وما كينة خياطة صغيرة ، وثلاثة أزواج قباقيب ، و « كليم » ، وطبلية عليها ورق ملوخية ، و « أم سيد » بيدها المخرطة .

تبدو « أم سيد » وهى تحرط الملوخية وتمتز معها ذات اليمين وذات الشمال ،

فتهتز معها كتلة الشحم المكدسة على جسدها ، وتتذبذب على رأسها الأوية التي شغل بها التنديل الذى تزدان به .

يطرق النافذة طارق فتصيح « أم سيد » بصوت موسيقى ذى نبرات ممدودة كأنها تقاسم الصبا :

— مين ؟

ويجيبها صوت أجش عميق :

— العيش .. عايزه كام رغيف النهارده ؟ .

— عشرة .. النص طرى والنص ملدن .

ويعد الرجل يده من النافذة بالعشرة أرغفة ويضعها على حافة النافذة من الداخل كعادته ، ثم يخط علامة بالطباشير على ضلفة النافذة يسجل بها الراتب اليومي وينصرف فى سكون .

وتدور « أم سيد » بنصفها الأعلى ثم تمد ذراعها فتناول الأرغفة من حافة النافذة وتلقى عليها نظرة فاحصة ثم تضعها جانبا وتواصل عملية الخراط مترجحة الأوصال مترنحة الأعطاف .

وفجأة ينطلق من الباب ما يشبه القذيفة المتطايرة فى الجو فتصطدم بحديد النافذة وتكاد — لولا ستر الله — تصيب الزجاج فتحطمه . ثم تهبط مستقرة فى جوف الملوخية المخروطة .

وتنزع « أم سيد » القذيفة ، ويرسم على وجهها خليط من الذعر والغضب بعد أن يتضح لها أن القذيفة ليست سوى « نحلة » أفلتت من أحد الصبية الذين يلعبون فى فناء الدار ، وتصيح هادرة نائرة .

— واد يا سيد .

ولا يجيبها سيد .. فقد فر مع بقية الصبية بمجرد انطلاق النحلة .

وتكرر المرأة نداءها دون جدوى ، ثم يصيها اليأس والتيرم فتضع النحلة تحت فخذها السمين وتنفس عن كرتها ببعض الشتائم والسباب والتهديدات ، ثم

تواصل خرط الملوخية .

ولا تمضى لحظة قصيرة ، حتى تسمع وقع خطوات تقترب من الباب متاقلة ، وتصيح المرأة منصتة في عجب ، ويفغر فوها عندما ترى الداخل وتضرب صدرها بيدها صائحة :

— إيه ألى جابك بدرى كده ، كفى الله الشر .

ولاشك أن المرأة معذورة في عجبها ، فإن الساعة ما زالت العاشرة ، وما تعود زوجها أن يحضر إلى الدار قبل صلاة الظهر ، ولا يمكن أن يعنى قدومه في هذه الساعة إلا أمرا جللا .

ووقف « أبو سيد » أو « الشيخ على لوز » — كما تعود أن ينادى في مهنته الأخيرة — أمام المرأة لينظر إليها شزرا وقد ارتسمت على وجهه علامات السخط والتبرم .

وعادوت المرأة سؤالها في خشية وغضب :

— مالك ؟ . ياخويا انطق .

— قرفت . خلاص .

أجل ، إن الشيخ على قد أعلن العصيان . وصمم على الثورة على مهنته الجديدة التي أرغم عليها إرغاما .

ما له هو ولكل هذا ، ما له هو ولهذا المظهر المحترم ، والذقن المسترسلة ، والسبحة المدلاة ، والشفة المتمتعة ؟

من كان يصدق أن المصير سينتهى به إلى هذه الحال ؟ .

من كان يصدق أنه . وهو المهرج الأكبر ، والبهلوان الأعظم ، الذى تقلب في كل المهن والحرف ، سينتهى به الأمر إلى أن يكون شيخا مطمطمطا ، عابدا مبتتلا ، ووليا من أولياء الله ؟

إنها لاشك مهنة مريحة مريحة ، ولكنه رغم ذلك لم يعد يطيقها ، إنه يستطيع القيام بها لأيام أو لأسابيع .. ويستطيع أن يتقنها أيما اتقان ما دام الأمر لا يتعدى

مدة محدودة ، أما أن يقوم بها إلى آخر العمر ، أو مؤبدا ، فذلك ما لم يستطع عليه صبرا .

رحم الله أيام العز ، عندما كان « الشيخ على » حرا طليقا ، تلك الأيام التي كان يعمل فيها سريحا يجوب الطرقات والأزقة .. جريا وراء الرزق ، الرزق المستعصى ، الصعب المنال .

إنه يذكر أول مهنة عمل فيها وهى صبي حاوى إذ كان يحمل جراب المعلم « سمبل » ويطوف معه الدروب والحوارى ، ويجلس لمعاونته أمام المقاهى ووسط حلقات الصبية ، فيخرج من فمه الثعابين ويدخل السيف فى بطنه ويخرجه من ظهره .

لقد علمه سمبل الشئ الكثير ، علمه كيف يخدع الناس ، ويحتال عليهم . كان « سمبل » أستاذه الأول فى علم الحياة ، لقد أفهمه أن كل الناس حمير ، لا فرق فى ذلك بين حقير وخطير ، كلهم سواء فى الخبز وإن اختلفوا فى المظهر ، وضع الفقير مكان الثرى يصبح خطيرا ، وضع الثرى مكان الفقير تجده أشد حقارة .

لقد علمه أنه ليس فى الحياة شئ صعب ، وليس فيها أمر بعيد المنال أو مستحيل الوقوع ، وعلمه أن يعمل فى أى عمل ، وألا يظن إنه يجهل شيئا .. إن الزمن يفعل كل شئ ، فليدع كل شئ للزمن ، فهو لا بد فاعله .

إن الزمن يجعل من الحبة الجافة شجرة مورقة ناضرة ، ويجعل من النطقة إنسانا كافرا مغرورا ، ومن الكافر المغرور عظاما نخرة ، وقد يحببها بعد ذلك وهى رميم ، أقيصعب على الزمن الذى يفعل كل هذا أن يجعل منك إنسانا وأنت حمار؟! لقد علمه « سمبل » الشئ الكثير ، علمه ألا يتعجب فى دنيا كلها عجب ..

ما لك تدهش فى عالم ليس به إلا كل ما يدهش !

لا تدهش إذا ما رأيت كلبا يطل من عربة بويك تنهب الأرض نهبا .. لا تدهش إذا قالوا لك إن الكلب ذاهب إلى الطبيب لأنه تناول من

المارون جلاسيه ما أتلّف معدته .. لا تدهش إذا احسست بقرصه الجوع فاستعصت عليك شقة وطعمية ... لا تدهش إذا ما نفقت ومات الكلب ، فلم تذرف عليك دمعة ، وشبع الكلب بالعويل والبكاء .. ولكن لتدهش ما شاء لك الدهش ، إذا لم تجد الصحف مجللة بالسواد ، ولم تجد الكلب العزيز منعيا بالخط العريض .

كل هذا علمه له سمبل — طيب الله ثراه وأكرم مثواه — ولقد كان « الشيخ على » قميناً بأن يبقى مع الرجل حتى يخلفه بعد وفاته ، لولا أن قرصة الجوع ذات يوم اشتدت عليه ، فاعتدى على الفطيرة التي كان يستعملها الرجل في ألعابه ، والتي كان يضعها في أسطوانة مستديرة ذات غطاءين يكشف أولهما فتبدو اللعبة فارغة ، ويكشف الثاني فتبدو الفطيرة فيها .

ولكنه في ذلك اليوم خذلته اللعبة ، عندما كشف الغطاءين لأن الفطيرة كانت مستقرة في جوف « الشيخ على » أو « الواد على » كما كان يسمى وقتئذ .
وطرده يومذاك بعد أن نتشه علقه ما زالت أثارها باقية على جسده حتى الآن .

وانطلق « الشيخ على » بعد ذلك في الحياة ، وهو مشبع بفلسفة سمبل ، مقتنع تمام الاقتناع بأنه ليس هناك شيء مستعص ، وأنه يستطيع أن يفعل كل شيء .
واشتغل أول ما اشتغل بمسح الأحذية ، ماراً على المقاهي ، ينقر الصندوق بفرشاته ، صائحا :

— تمسح يا بيه ؟ .

ولم تكن لديه في أول الأمر أية فكرة عن مسح الأحذية ، وكان إذا ما جلس إلى الحذاء بدا له كأنه معضلة كبرى ، ولا يكاد يتم مسحه حتى يكون قد مسح معه نصف الشراب .. ومع ذلك ، فلم تكد تمضي بضعة أيام ، حتى أضحت المسألة سهلة هينة .. لا تحتاج إلا إلى وش تنفيض ووش ورنيش ، ووش تلميع .. وأضحت قطعة القطيفة في يده — على حد قوله — زى الحلالة ،

وصدقت نظرية « سميل » في أن الزمن كفيل بكل شيء ، وأنه يعلم الإنسان ما لم يعلم .

واستيقظ ذات يوم فإذا بالصندوق قد سرق ، وهم بأن يحزن ، ولكنه تذكر أن حياته كانت يمكن أن تسرق بدل الصندوق ، فحمد الله واستبدل بحزنه ضحكة رنانة ، وسرعان ما انطلق في الحياة مرة أخرى ، وكانت مهنته الجديدة ، هي مساعد أراجوز .

كان صاحب الأراجوز « إبراهيم بندق » قد تعارك مع مساعده ، فلم يكدر يلقي صاحبنا حتى تهافت عليه ، وعرض عليه أن يعمل معه ، ولم تكن مهمة المساعد بالمهمة الشاقة ، أو العسيرة .. فما كان عليه سوى أن يمسك الطبله وينقر عليها بضغ نقرات .. ثم يجيب الأراجوز عن أسئلته من آن لآخر .

ولم يتردد الشيخ على في قبول المنصب الجديد ، رغم أنه تردد أول الأمر ، وخشى ألا يعرف كيف يدق الطبله ، ولكن بعد بضعة جولات كان يقوم بمهمته خير قيام .

وفي ذات يوم مرض « بندق » وأشرقت عليه الشمس وهو جثة هامدة ، وأصبح الشيخ على وارثا لمهمات الأراجوز ، وأضحى هو نفسه أراجوزا .

وتردد « الشيخ على » قبل أن يأخذ على عاتقه المنصب الجديد ، فقد كانت المسألة في هذه المرة تحتاج إلى مهارة خاصة ، وإلى موهبة في الصوت ، فليس صوت الأراجوز بالصوت الذي تستطيعه كل حنجرة .

وبدأ يقوم بالتجارب والتمرينات ، ومرت الساعات ، وهو لا يفعل شيئا سوى التزمير بحنجرته كأنه آلة موسيقية انهمك صاحبها في تصليحها .

وأخيرا أنعم الله عليه ، بصوت الأراجوز ، وأحس « الشيخ على » بفرحة كبرى ، واندفع راقصا صاحبنا ضاحكا ، وبدأ أولى جولاته الموفقة .

وانسجم صاحبنا في مهنته الجديدة ، وأدخل فيها من التجديد والابتكار ما أخرجه من جمودها وركودها ، وبدأ يحفظ أحدث المتولوجات وأكثرها

ذيو عا ، لكى يلقيها بلسان الأراجوز .
وأعاد « الشيخ على » رسم العرائس ، واخترع شخصيات وأسماء جديدة
غير التي اعتادها الأراجوز منذ عشرات الأعوام ، وبدأ يخلق من صندوقه عالما
آخر . ولم ينس أن يخلد ذكرى أستاذه الأول فصنع إحدى الدمى وسماها « سمبل
الحاوى » .

وسارت حياته منذ ذلك الحين هنيئة رغدة . وزاد رغدها عندما سنحت له
الفرصة وواتاه الحظ . فاستطاع الالتحاق بعمل ليلي في تياترو « أبو الريش »
فاتسع رزقه وزادت موارده ، وأضحى أراجوز النهار ويليأتشو الليل ، لا يكاد
يكف لحظة عن الضحك والتهريج .

وما من شك في أن الرجل كان ينوى أن يقضى حياته وهو على حاله تلك من
الفرقة ، والمهيسة ، يغازل هذه ويداعب تلك ، لا هم له إلا الترويح عن نفسه
حتى أصابه الله بشر ما يصيب به عباده ، وابتلاه بالكارثة الكبرى ، الزواج ،
فقلبت حياته رأسا على عقب .

لقد أحب المسكين ، أحب « البت عزيزة القرد » بنت « الشيخ زكى
القرد » شيخ أبى الريش وخادم ضريحه ، الرجل الطيب ذى الكرامات
والبركات .

وكثيرا ما يجلس « الشيخ على » الآن ، فيتأمل « عزيزة » أو « أم سيد » ويهز
رأسه متعجبا أسفا ، ويسائل نفسه كيف هيا له الخبل أن يحبها .. وماذا أبصر فيها
وقتذاك مما يعشق ويسبى ؟!

الحمار ، الأبله ، لقد نسي نصيحة أستاذه « سمبل » الذى طالما حذره من
النساء ونصحته — وهو ما زال صبيا — ألا يقع في شرك الزواج ، وأن يبعد
جهده عن ذلك الطعم المسمى بالحب .

ومع ذلك ، فقد أحب ، وطب ، كأي مدب ! .
لقد أغراه الطعم بالتهامه ، وأوقعه في شرك « عزيزة » ، ردفان ثقيلان ،

ونهدان ناضجان ، أوشكا من فرط الثقل والاستواء أن يتساقطا .
رأها ذات مرة من ثقب حاجز الأراجوز ، فأخذ بها ، وبدأ في مغازلتها ، على
لسان الأراجوز مدعيا أن الأراجوز يحب القشطة ويموت في المهلبية . وأحست
« عزيزة » أنه يوجه إليها القول ، فعلا وجهها الاحمرار ، وانصرفت مدعية
الغضب .

واستبد به الحب وقتذاك فلم تمض بضعة أيام حتى ذهب إلى « الشيخ زكى
القرند » بخطبها منه .

ورحب به الشيخ زكى في مبدأ الأمر . ولكنه عندما تبين مهنته أبدى كثير
اشمئزاز ، وأنبأه — بالاشتراك مع أم عزيزة — أنه لا يقبل أن يزوج ابنته أراجوزا أو
بلياتشو ، وأنه إذا كان يرغب في زواج ابنته رغبة صادقة فإن عليه أن يغير
مهنته أولا .

ومرت الأيام به وهو يقارن بين عزيزة والأراجوز ، وأخيرا ، وللأسف
الشديد فضل عزيزة .

وهكذا وجب عليه أن يبحث له عن مهنة جديدة ، ولم يكن ذلك عليه بالأمر
اليسير . فسرعان ما باع مهمات الأراجوز واستعاض عنها بعربة يبيع فيها « على
لوز » ويضع عليها لوحة للتشوين وبندقية ويضع علب ملبن ، وبصوته الجمهورى
الرنان ينادى :

— فتح عينك تأكل ملبن .

وتزوج الشيخ على بعزيزة بعد أن وطد مركزه في تجارته الجديدة ، ولم تكن
حياته بعد ذلك بالشئ الذى لا يحتمل بل كان يتساوى في التعاسة مع سواه من
الأزواج .

أجل ، كانت حياته — على رغم أم السيد — محتملة ، حتى كان ذات يوم ،
مات الشيخ زكى ، وأضحى ضريح « أبو الريش » بلا خادم ونقص أولياء الله
الصالحون واحدا .

وبدا الأم سيد ولأم أم سيد (فاطمة القرد ، زوجة المرحوم الطيب الذكر) أن كرسى الولاية الشاغر يجب ألا يضيع من العائلة الصالحة وأن « الشيخ على لوز » قد سنحت له فرصة ذهبية يجب عليه انتهازها .

وذهل « الشيخ على » في مبدأ الأمر ، فقد كان واثقا أنه آخر من يصلح لهذا الأمر ، وأن طبيعته المهرجة البهلوانية لا تتلاءم قط مع هذا المنصب الدينى الخطير . ولكنه وجد أن مفاوضة زوجته وحماة ضرب من المستحيل . وارترك « الشيخ على » في بادئ الأمر ، فما كانت لديه أقل فكرة عن أبسط مبادئ الدين ، ولكنه تذكر فلسفة سمبل وأنه ما من شيء في الحياة إلا والزمن كفيل به .

وأرسل الرجل لحيته .. واستبدل بالتهريج عبوسا . واستمر قائما في ولايته ومشيعته مرضيا كل من حوله مقنعا كل الناس إلا نفسه .

أجل . لقد أحس أنه لم يعد يطبق مهنته ، وأن لحيته تثقل عليه ، وأنه كان أقرب إلى الله وهو مخلص في تهريجه منه وهو منافق في عبادته . لقد كان بالأراجوز يضحك الناس ، فأصبح بلحيته ومسبحته يضحك على الناس .

لا .. لا .. لقد صمم على أن يعود إلى سيرته الأولى . وعاد في الصباح إلى بيته يعلن الثورة على « أبو الریش » وعلى « أم السيد » .. وقف أمام « أم سيد » وقد أمسك بلحيته يهزها ويقول في تحد :
— خلاص زهقت .. زهقت من الدقن دى .

— قصدك إيه ؟

— يعنى مش ضرورى دقن . هو لازم الواحد يرى دقته عشان يقرب من

ربنا ؟

— انت يا راجل لازم اتجننت .

وتركت أم سيد مكانها أمام الطلبة ، وأمسكت بالخرطة ورفعتها في يدها وأمرت « الشيخ على » أن يعود إلى الضريح بالتى هى أحسن .
وخرج « الشيخ على » مطاطئ الهامة عائدا إلى الضريح ، ولكنه مر في طريقه بالرجل الذى ابتاع منه الأراجوز فاستعاد لنفسه بعض الدمى .

ودخل « الشيخ على » داخل الضريح فإذا به يسمع صوت نجيب قريب ، وأبصر امرأة بجوار الضريح تبكى بكاء مرا فساءلها عما بها فأنبأتها أن ابنها على شفا حفرة من الموت وأنها تسأل سيدى « أبو الريش » أن يأخذ يده .
وفكر « الشيخ على » برهة فوجد أن ما تعود أن يفعله من تعاويذ وما يمنحه من بركات ليس سوى خداع فى خداع ، وأن خير ما يمنحه للمرأة مخلصا هو أن يسلبها ببعض اللعب بالأراجوز .

وبدأ الرجل لعبه داخل الضريح والمرأة فى دهش شديد ، ورويدا رويدا بدأت أسارىها تنفجر حتى شاع فى وجهها السرور .
وفجأة أحست المرأة بنور يملأ الضريح ، ونفذت إلى أنفها رائحة بخور جميلة قوية ، وخيل إليها أنها تسمع صوت ابنها يصل إليها من بعيد .
وعندما عادت إلى دارها وجدت ابنها قد أبل مما به .

وشاع فى الحى خبر المرأة ، وخبر معجزة « الشيخ على لوز » والأراجوز .
ومنذ ذلك اليوم اعتقد الناس اعتقادا جازما أن « أبو الريش » يحب الأراجوز ، وأنه لا يمنح كراماته إلا بالتوسل بالأراجوز .
ولم يفكر « الشيخ على » بعد ذلك فى ترك الضريح ، فقد سره أن يعبد الله مخلصا بطريقته الخاصة ، وتركه الناس يلعب بدماء كآ يشاء .

ماذا يضيرهم من ذلك ما دام يمنحهم بركاته وكراماته ؟ إن الرجل لاشك قد أصابه خيل ، ولكن أليس الخبل شرطا من شروط الولاية ؟
وماذا يضير « الشيخ على » أن يقال عنه إنه مخبول مجذوب ؟
بقى بعد ذلك أن نسأل الله : أيهما أقرب إليه ؟! فقيه مخداع ، أم مهرج أمين ؟ .

فجينة ناميش

كان يعتبر نفسه في « جينة ناميش » شخصية عامة
يشارك في كل موكب ويساهم في كل حفل عام ، وكان
أكثر ما يطربه أن يمتطى عربة الجوافة ويقود الجمع الغفير
من الصبية معاونا البائع في صياحه : « عال يا جوافة بقرش
الوقه » ، « اوزن بره ... بقرش الوقه » .

لست أدري ماذا فعل الزمن به .. ولا على أى حال أصبح ، وإن كنت لا
أشك في أنه — بحساب السنين — قد أضحي رجلا عاقلا متزنا ، وأن الزمن قد
رزأه بالزوجة والأولاد ، فأصبح رب عائلة وعماد أسرة ، وأثقل كاهله بمسئولية
الرزق وهموم الحياة .
ومع ذلك فأنا لا أستطيع تصوره إلا بصورته القديمة التي تعودت أن أراه عليها
منذ عشرين عاما .. فقد كانت تلك هي هيئته وطابعه التي يجب أن يكون عليها
دائما .. والتي يستحيل عليه أن يبدو في غيرها ، مهما مر به الزمن وعدت عليه
السنون .

إن « جوده » — مهما حدث للدنيا وللناس — لا يمكن أن يكون غير
« جوده » الذي كان يخدم في بيتنا لبضع سنين حوالى عام ١٩٣٠ .
كنا نقطن وقتذاك في « جينة ناميش » قرب سيدى الأربعين في منزل يقع على
ناصيتى شارع الخليج وشارع الأربعين المواجه لكوبرى المنيرة .. وقد حدثت في

البيت أزمة خدّم عقب هروب الخادّم ، وزواج الخادّمة .. ومر بنا أسبوع بلا خدّم ، حتّى تطوّعت « أم نجية » الغسّالة بإحضار ابنها « جوده » للخدمة فى البيت .

وحضّر « جوده » وبدأ أعماله فى الدار وخارج الدار . ولست أشك فى أنّه لولا خوف والدتى من « أم نجية » لما قبلت أن تبقى عليه لحظة واحدة .. فقد كان مخلوقاً متعباً كثير المشاكل ، جلاباً للمتاعب والمصائب .

كان « جوده » نموذجا للتشرد ، والشقاوة ، والعفرتة ، والإجرام الصبيانى .. وإنى لأذكر صورته وقتذاك بشعره الأسود المشوش الشبيه برأس العبد ، ووجهه الأسمر المستطيل ، وأسنانه الفلجاء ، وأذنيه الكبيرتين ، وجسده النحيل الشبيه بجريد النخل ، وجلبابه الزفير المخطط ، وقد شمر ذيله الجرار ووضعه فى اللباس الدمور ، فكشف غن ركبتيه السوداوين المليئتين بالجروح والندوب .

ولقد أضحى « جوده » على مر الأيام ، المصدر الأول — بعد أبى طبعاً — لمتاعب أمى .. فلقد أضاعت ثلاثة أرباع عمرها فى الشكوى من « جوده » والصراخ على « جوده » والسب والضرب فى « جوده » . ولم يكن « جوده » يسمى قط باسمه ، بل كان يكتفى — على طول الخط — بـ « اللى ينعدم » و « اللى تنقصف رقبته » و « المتئيل على عينه » و « اللى ينشك فى قلبه » .

أما هو فكان يضحك دائماً .. كان إنساناً بحبوحاً .. يضرب فيضحك ، ويسب فيضحك ، ويشتكى منه فيضحك ، وما من شيء كان يستطيع أن يجعله يكف عن الترم بأغنيته المحبوبة : « على دول ياما ياما على دول » .

ولم يكن « جوده » يعرف شيئاً عن المسئولية . ولا حاول قط أن يقدر عاقبة أو يخشى نتيجة ، بل كان يفعل كل ما يحلّو له وكثيراً ما خرج ليقضى حاجة من البدال فى أول الشارع فيمضى به اليوم دون أن يحضر ، حتّى يطلب منا أن نرسل

في أخذه من الإسعاف أو من قسم السيدة .
ذهب مرة ليحضر صينية بطاطس من الفرن ، ومضت ساعتان دون أن
يحضر ، وجلس والدى على المائدة يحرق الأرم غيظا ، وأخذت أُمى تنتقل من
نافذة إلى أخرى وهى تكاد تجن ، وأخيرا ظهر « جوده » فى الشارع وقد وضع
الصينية على رأسه دون أن يمسكها بيديه ، وسار مادا ذراعيه إلى جنبيه وهو يوازن
نفسه كأنه بهلوان يمشى على حبل ، وصرخت فيه والدتى أن يسرع ، ولكنه لم
يزد على أن رفع عقيرته بالغناء « على دول ياما ياما على دول » .
ووضعت الصينية على المائدة ، ونظرت والدتى إليها ثم صاحت فى دهش
وغضب :

— إيه ده يا واد ؟ الصينية دى مش بتاعتنا !
وابتسم « جوده » ، وهز رأسه هزة خبير وقال :
— أنا عارف .
— وجبتها ليه ؟
— دى أحسن من بتاعتكم .
ثم أخذ يوضح قوله للأعين الدهشة المصوبة إليه ، فقال بابتسامة راضية :
— دى بالفراخ ، بتاعتكم كانت باللحمة ، اللحمة العجالي .
وبدأ يشرح لنا كيف حاول الفرن تأخير .. ساردا الحوار الذى جرى
بينهما :

— فين الصينية ؟
— استنى شويه ، بلاش فلقة دماغ .
— يا جدع هات الصينية ، سيدى مستعجل .
— ماتخوتناش ، يلعن أبوك لأبو سيدك .
ثم ينظر بطرف عينه ليرى وقع إهانة الفرن على أبى ، فلما لم يجد لها تأثيرا
يذكر ، عاد إلى تكرارها مسترسلا فى رواية المعركة :

— فلما قال لى يلعن أبوك لأبو سيدك ، رحت لا عن سنسفيل أجداد أبوه ، وصممت أنى أنتقم منه ، وفضلت مستنى لغاية ما ابتدى يطلع الصوانى وحطيت عيني على أجدع صينية وسهيته ورحت لاطشها .

وذهل « جوده » عندما أمرته أمى بإعادة الصينية ، وانهاالت عليه بالشتائم ، ونظر إلى أبى مستنجدا ، ولكن أبى هز رأسه كأنه يقول « ما باليد حيلة » ، وخرج جوده عائدا إلى الفرن وهو يصيح : أصل مالكمش فى الطيب نصيب . وكنا وقتذاك — أنا وأخى — فى مدرسة محمد على الابتدائية ، وكان توصيلنا إلى المدرسة وإحضارنا منها أحد الواجبات الهامة الملقاة على عاتق « جوده » .

وكان المفروض فى « جوده » أن يأخذ باله منا ، وأن وجوده معنا مقصود منه الاطمئنان على سلامتنا ، ومنعنا من الشقاوة واللعب ، ووقايتنا من حوادث الطريق .. ولكنى أجزم بأننا لو تركنا وحدنا لكننا أكثر سلامة واطمئنانا ، ولسرنا فى الطريق أهدأ ألف مرة مما كنا نفعل . وكيف يمكن أن يجتمع الهدوء والسلامة مع « جوده » فى طريق أو فى دار ؟ وهو الذى كان فنانا فى الشقاوة .. عبقريا فى خلق الحوادث واصطياد المشاكل ؟

كنا نهبط من الدار فى السابعة صباحا وقبل أن نتجاوز الباب يخلع صاحبنا نعليه ، سواء كان شبشبا أم قبقابا .. وينخفيه وراء الباب ، فقد كان لا يحب شيئا أكثر من حرية الساقين ، وكان يدعى دائما أن النعل يعوق حركته ، وأنه ليس هناك أفضل من الحفاء ، فإذا تجاوزنا الباب وابتعدنا عن الدار ، رفع ذيل جلبابه ووضع فى اللباس كما تعود أن يفعل ، ثم أخرج من جيبه كرة شراب ، ووضع أصبعيه فى فمه وأطلق صفارة طويلة .

وهكذا نبدأ الذهاب إلى المدرسة عدوا ، والكرة تتقل بين أقدامنا ، عابرين سيدى الأربعين إلى درب المديح إلى شارع السد ، هو فى منتصف الطريق قلب هجوم أو سنتر فرود كما كان يزعم ، وأنا جناح أيمن ، وأخى جناح أيسر . ولست أدري ماذا كان يمكن أن تقول والدتنا لو رأتنا على حالنا تلك ، نقطع

شارع السد البرانى من سيدى الحبيى حتى شارع سلامة ، نعدو بالكرة بين مختلف أنواع العربات ، و « جوده » يطلق الصفاير بفمه وأصابعه أمرا المارة أن يخلوا الطريق لتيم الكابتن « جوده » .

وأذكر أن الكرة أفلتت منا ذات مرة عندما ضرب « جوده » إحدى « الباصات » ، وكانت طويلة بعض الشيء ، وتجاوزت الجناح الأيمن لتستقر رأسا داخل قدرة فول مدمس ، فلم يكن من « جوده » إلا أن أمرنا بالزوغان ، وأخذنا نعدو وراءه حتى اختفينا في أقرب حارة ، ونحن نرتجف خوفا من « عم منصور » بائع الفول والبليلة السخنة .

ولم يكن يمر بنا يوم دون أن نشتبك في معركة ، فقد كان « جوده » — كما تقول أمه — يشاكل طوب الأرض . وكان مغامرا فدائيا لا يعتبر فارق القوة بينه وبين خصمه حائلا دون الاشتباك معه ، بل أغلب الظن أنه كان يرى نفسه أقوى وأفضل من أى إنسان ، وإني لأذكر ذات مرة أن والدتي سألت أمه عما إذا كان يمكنها أن تحضر لعمتى خادما مثل جوده — تقصد مثله سنا — وسمع « جوده » قول أمى فهز رأسه وأجاب فى أسف واعتذار :

— زىى أنا ؟ مش ممكن ، وتلاقى منين زىى ؟

وكان جوده يتفنن فى وسائل التسلية التى نقطع بها الطريق إلى المدرسة ذهابا وإيابا ، وكان يوم الخميس من الأيام المشهودة لديه ، فقد كان يشحذ همته ويحشد قوته للاستيلاء على أكبر عدد من النوت التى كانت توزعها سينا أوليحميا وإيديال على باب المدرسة ، وكان يخرج منها بنصيب الأسد ، فى النوت ، وفى الجروح والكدمات .

وكان يعتبر نفسه فى جنية ناميش شخصية عامة يشترك فى كل موكب ويساهم فى كل حفل عام ، وكان أكثر ما يطربه أن يمتطى عربة الجواقة ويقود الجمع الغفير من الصبية معاوننا البائع فى صياحه « عال يا جواقة .. بقرش الوقة » ، « اوزن بره .. بقرش الوقة » ، أو يقود المظاهرة وراء الجمل صائحا :

« من ده بكروه .. بيقرشين » .

وفى عودتنا من المدرسة ، كان أهم مورد لتسليتنا هو الشيخ « كحكو » فقد كنا نبدأ فى زفه بمظاهرة يقودها « جوده » ويشترك فيها كل من هب ودب من صبية مدرسة محمد على ووادى النيل ، ومدرسة الكمال ، أى الجيل الجديد فى حى السيدة زينب .

كنا نلتقى بالشيخ « كحكو » خارجا من إحدى حوارى شارع سلامه ، فلا نكاد نبصره حتى يبدأ جوده بالهتاف : « شد العمة شد » فتجيب على هتافه : « تحت العمة قرد » .

وهكذا يسير الموكب وراء الشيخ « كحكو » مخترقا شارع السد البرانى وجوده يتفنن فى الهتافات والرجل ثائر هائج ، يقذفنا بأقبح الألفاظ ويدعو علينا بأفظع الدعوات ونحن ضاحكون منشدون : « شيخ كحكو يا شيخ كحكو » .

ولست أشك فى أن الشيخ « كحكو » لو استطاع أن يمسك بجوده لما تورع عن أن يطبق فى زمارة رقبته ويمزقه إربا ، فقد كان يعتبره عدوه الألد ، وخاصة بعد تلك الواقعة التى حدثت بينهما عند سيدى الحبيبي .

كان ذلك قبيل العصر وقد خرج « جوده » لشراء بعض الحاجيات من شارع السد ، ومضت بضع ساعات دون أن يعود ، وفى الساعة العاشرة مساء حضر شيخ الحارة ليطلب منا — كالمعتاد — أن نذهب لتسلمه من القسم .

وأحضر « جوده » من القسم ، وبعد العلقه والذى منه خلوت به أنا وأخى فى المطبخ ، وأخذنا نسأله عما حدث .

وضحك والدموع فى عينيه وأجاب متفاخرا :

— عصفورين بحجر .. عصفور حقيقى ، وعمه الشيخ « كحكو » ..

خليتها تنزل ترف .. فاتكم نص عمركم !

وبدأ « جوده » يقص مغامرته قائلا :

— أما كان يوم ياولاد ، يعلم بيه ربنا ، أنتم عارفين انى أنا خارج من البيت على أنى أشتري بتعريفه لمون من تحت الكوبرى ، والا من محمد البطل ؛ لكن أنا يا دويك سبت باب البيت ولقيت الواد زينهم فى وشى .

— زينهم مين ، ابن الشيخ طرطور ؟

— لأ .. ابن زكية العمشه .

— وبعدين ؟

— ولا قبلين .. قال رايح فين ؛ قلت له رايح أشتري لمون .. قلت له وأنت ؟

قال رايح أصطاد .

— يصطاد ؟

— أيوه يصطاد .

— يصطاد إيه ؟

— متخليكو معايه ، مانا جيلكو أهو ، قلت له رايح تصطاد إيه يا وله يا زينهم ، قال لي عصافير يا خويه يا جوده ، عصافير ؟ معاك فخ ؟ قال : لأ نبه ؛ قلت له جاتك نبه ؛ أل يعنى الواد نشانجى أوى ، أفتكرت معاك فخ كنا نروح نصطاد فى عربخانة الرمالى ؛ دا هناك العصافير بتشغى زى الثمل .

— فخ ؛ هو احنا بتوع فخوخ . دا شغل نسوان تحط الفخ وتقعّد جنبه زى الولايا ؛ عارف النبلة دى توقع لك أجدع نسر ، شوف .

وعنها وراح معمر النبلة بحتة زلطة وراح ضاربها فى الهوا طلعت الزلطة تصفر زى الصاروخ ؛ فشر البندقية .

أقول لكم الحق ، عيني زاغت على النبلة ، وأنا أصلى نشانجى طول عمرى وأفهم فى النبيل كويس ، لكن ما حبتش أطمع الواد زينهم فى وأخليه يتقنّزح على ؛ رحّت قايل له :

— دى نبه دى ، روح يا بنى بلاش معيله ، دى تصطاد بيها دبان مش نسور ؛ روح خلىنى أشوف شغلى .

— يعنى مالکش غرض تصطاد ويايه ؟

— لأ . وحاصطاد فين ؟

— حاصطاد فى شارع السد ، انت عارف شجرة دقن الباشا الى بعد سيدى

الحبيبي الى بتقعد تحتها أم سيده بتاعة القول النابت والكرات والبصل الأخضر .

— واشمعى دى يعنى الى نقيتها من بين الشجر .. ما قدامك شجرة سيدى

الأربعين ؛ والا الشجرة الى فى بيت المنفلوطى ؛ وألا بيت الزعبلوى ؛ والا

الماوردى ؛ والا الرمالى ؛ لازم تحبب المشوار لغاية هناك ؟

— أصلها شجرة سقع ؛ بتشغى عصافير ؛ تقف تحتها تسمع الصوصوه

واصله لرب السما .. يا الله معايا .

— لا يا عم .. أنا رايج اشترى اللمون .

— طب ما تشتري اللمون من عند أم سيده ؛ قل لستك انك مالقتش لمون

تحت الكوبرى ولا عند أحمد البطل ؛ رحى تشتري من عند سيدى الحبيبي .

وقفت شويه أفكر ؛ قام زينهم قال لى :

— وجب ؟

— وجب ؛ بس انا الى اصطاد الأول ؛ ورينى النبلة .

مسكت النبلة ؛ حطيت فيها الزلطة ورحى ضارب .

طلعت الزلطة .. تروح بعيد ؟! أبدا .. توقع عصافير ؟ أبدا .. تطلع فى

الهوا ؟! أبدا .. الزلطة بنت الداخه تسبب كل الدنيا الواسعة وتندب فى الفانوس

الصغير المعلق على بيت المعيرجى نزلته فتافيت .

الفانوس سقط ، وقلبي سقط ، وروحي ساخت وانتو عارفين المعيرجى

راجل مجنون وعارفين الشومه بتاعته ، رحى حاطط ديل فى اسنانى أنا وزينهم

وقلت يافكيك .

فضلنا نجرى لغاية ما وصلنا بوابة الرمالى ودخلنا جوا الوابور وبعدين وقفنا

ناخد نفسنا ؛ وبصيت لزينهم وقلت له :

— شايف النشان يا وله ؟

— نشان ! طب تعالى نقف قدام القانوس سنة وجرب تصييه ؟! آل نشان
آل ؟ علّى أنا يا جوده .

وطلعنا من وابور الرمالى على شارع السد ؛ ورحنا على شجرة دقن الباشا ،
ووقفنا ، وابتدأ زينهم يضرب .

طلعت أول زلطة ، ولا نزلتش لاهى ولا العصفوره .
زينهم هز رأسه وقال دى تجربه .

طلعت الثانية ولا نزلتش العصفوره ؛ لكن نزلت هى على دماغ « أم
سيده » ؛ وانتو عارفين « أم سيده » ؛ وليه غجرية ؛ مسكت الزلطة وبصت
فوق الشجرة مالفيتش حد .. بصت حوالها لقيت زينهم ماسك النبلة ، راحت
هبه فيه : والنبي واللى نبا النبي ! لو مسكتك ما تمسكك عافيه ، امشى بقولك
من هنا منك له ؛ لحسن العفاريت بتتط من عنيه .

— معلش يا أم سيده ، أول جوز عصافير ليكى .

— مانيش عايزه عصافير ، اللى يفرقه العويل يسفه .

المقصود ما طولش عليكم ، فضل زينهم يضرب من غير فايده ، رحت واخذ
منه النبلة ، وابتديت الضرب ، تطلع الزلطة ورا الزلطة والعصافير ما عندهاش
دم ، ما فيش واحده تنزل توحد الله .

الحقيقة انكسفت ، وعمرت النبلة وقلت فى نفسى آهى آخر زلطة ، وقرت
عليها الفاتحة ، ورفعت إيدى بالنبلة عشان أضرب ، فى الوقت ده لقيت قدامى ،
مين تفتكروا ؟ خمنوا كده ؟! لقيت عمة الشيخ كحكو .. لأ .. لأ مش على
الشجرة ، على دماغ الشيخ كحكو ، وهو جاى يتبختر من عند سيدى
الحبيبي .

قلت فرجت ، ووطيت إيدى بالنبلة ، ورحت ضارب وقلت : يعنى
لا عصافير ولا عمم ؟. وعنها وتنزل عمة الشيخ كحكو ترف بعدما لفت معاها

دماغ الشيخ كحكوا سبع لفات .

وينظر جوده النينا ويتساءل :

— بالذمة مش تستاهل أروح فيها القسم ؟

— أى والله تستاهل .

ومرت الحادثة كغيرها ؛ وحلت الإجازة الصيفية ؛ وبدأت والدتي تقاسى منا فى خلالها الأمرين ، وتستجير بالله منا ومن أفعالنا وتدعو على وزارة المعارف لأنها لم تجعل العام الدراسي ممتدا على طول السنة .

وفى ذات يوم كنا نقف أمام البيت ، وقد بدأنا الاستعداد للعب الكرة ، وانتهى جوده من عمل كرة ضخمة حشاها بكل خرق البيت ، وأمرنا أن نخلع أحذيتنا حتى تتساوى ولا يستطيع أحد منا أن « يكسر » الآخر .

وخلعنا أحذيتنا ووضعناها وراء الباب عندما سمعنا صوت ضجيج يأتى من بعيد ، ثم لاح لنا شبح مظاهرة قادمة من شارع الخليج ، وكانت تلك الفترة مليئة بالمظاهرات التى كان الوفد ينظمها ضد وزارة صدق باشا .

واقتربت منا المظاهرة ، خليط من أهل الماوردى والمدبح بجلالسيهم وطواقيمهم ، وقد أمسكوا بأيديهم العصى والشوم وأخذوا يهتفون فى نغمة راقصة ملحنة : « يحيا الوفد ، ويحيا الوفد » .

وانتشى جوده وتملكه من الهتاف الوفدى الملحن الراقص طرب شديد ، فقذف بالكرة وراء الباب ، وصاح بنا فى عجلة :

— ياللا بينا .

وظلت المظاهرة تسير من شارع إلى شارع ، مخترة وابور الرمالى إلى البغالة مارة بجميع الشوارع والأحياء ، وهى تتكثل وتتضخم .

وسرقنا الوقت ونحن مندمجون فى المظاهرة الصاخبة الهادرة وظللنا نجول معها دون أن نشعر .

ولتصوروا حال والدتي وقتذاك : لقد كادت تحن ؛ وهى تقف فى الشرفة

باكية ؛ وقد ذهب أبى ليلخ الأقسام عن غيابنا ويبحث عنا فى القصر العينى .
وأقسمت والدتى ليلتذ أنها لن تبقى فى البيت لحظة واحدة إلا إذا أدخلنا أبى
المدرسة ؛ أى مدرسة .

وهكذا استقر رأى على أن نقضى بقية إجازتنا فى أحد الكتاتيب رغم أننا كنا
فى الرابعة الابتدائية ؛ فقد كان المطلوب هو مجرد سجن يبعدنا عن الدار .
وفى ذات صباح تحرك الركب متجها إلى الكتاب الذى اتفق أبى مع صاحبه
على إيوائنا وقد ضم ثلاثتنا : أنا وأخى وجوده ؛ وكان جوده يرتدى طربوشا
وصندلا وجلبابا جديدا ؛ ولم يكن هذه المرة مجرد موصلاى ؛ فقد عقدت أسمى
النية على أن يبقى معنا طالبا فى الكتاب لحراستنا ثم يعود معنا فى نهاية اليوم .
وكان « جوده » فى حالة سعادة تامة ؛ وهو يرتدى طربوشه وصندله ؛ إذ
كان يشعر أنه مقدم على مغامرة جديدة ؛ فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى
يذهب فيها إلى كتاب .

ووصلنا إلى الكتاب ودلفنا إلى داخله ، واتجهنا إلى حجرة على اليمين كتب
عليها « الناظر » .

ودخلنا إلى « الناظر » لنعلنه نبأ قدومنا ؛ ودفعنا بابه باستخفاف ، فقد كنا
نحس أننا أرفع كثيرا من الكتاب ومن الناظر ؛ وأن مجرد وجودنا عنده يعتبر
تشريفا له تماما كما ينتسب العلماء إلى إحدى الجامعات .. وتوقعنا أن يهلل الناظر
لقدومنا ويكبر .

ووقع بصرنا على الناظر ؛ فدهشنا وبهتنا ؛ ووقع بصر الناظر علينا .. فدهش
وبهت .

لقد كان الناظر هو بعينه الشيخ « كحكو » ، لقد هلل لنا وكبر ، ولكن كان
تهليلا فى غير مصلحتنا ، وكان أول ما فعل أن نادى الفراش وصاح به مشيرا إلى
« جوده » : هات الواد ابن الكلب ده حط رجله فى الفلقة » .

ووضعت قدما جوده فى الفلقة وهو يصرخ ويستغيث ، والشيخ يصيح ،
« شد الفلقة شد » ؛ لقد كان الكتاب حقا بالنسبة لجوده مغامرة كبرى .

في سيدى زينهم

وخرجت « أم عبده » من باب الدار عابرة سيدى
زينهم إلى شارع سكة البغالة ، ثم اتجهت يمينا إلى ميدان زين
العابدين .. وسارت بجوار حوض شرب الحمير الكائن في
الميدان وهي تتلقى السلام ممن استيقظ من أهل الحى .
بى حيرة من أين أبدأ الجولة .. وبمن أفتحها ؟ . بأم عبده .. أم بعبده ؟ . ولكنى
أظن من الخير قبل أن أبدأ بأيهما أن أنبه القارئ ألا يخذله تشابه الأسماء .. فيظن
أن أم عبده هى « أم » عبده حقا .. وأن عبده هو ابن لها .. إذ لا صلة هناك بين
الاثنين ولا قرابة . فأم عبده قد أفنت أزواجها الأربعة .. وأولادها العشرة
الواحد إثر الآخر .. فما بقى منهم واحد على قيد الحياة . بما فيهم عبده ، الذى
نعتت باسمه ، والذى قد مات مضروبا ببلطة فى إحدى ليالى الزفاف .
أما السيد عبده .. أو عبد السميع أفندى .. أو عم عبد السميع .. كما يسميه
أصدقائه وإخوانه .. أو « المنيل على عينه الشحات ابن الشحات » كما كانت
تصر أم عبده على تسميته .
أقول أما عبده هذا فقد كان بلا أم .. أعنى بلا أم على قيد الحياة .. فقد نشأ
يتيم الأم والأب .. وخاض معركة الحياة وحيدا ، وسار فيها فريدا .. وأفنى صباه
وشبابه وجزءا من كهولته .. وهو وحده لا شريك له .
لنبدا بعبده .. فنبحث عنه .. ولنصعد الدرج حتى نصل إلى حجرته الكائنة
بسطح الدار التى تملكها أم عبده فى سيدى زينهم .

الوقت قبيل الفجر لا يقطعه إلا صباح الديكة التى تقطن التقفيسة الملاصقة
لحجرتها والتى تشاركه مع بعض البط والأوز سكنى سطح الدار .. وظلمة الليل
ما زالت فلوها تقاوم هجوم النهار .. والنجوم قد أضناها السهر ، ونحاول أن
نبحث عن عبد السميع أفندى فى حجرتة فنبوء بالفشل الذريع .. فقد ملأت
الحجرة ظلمة حالكة .. لا شمعة ولا مصباح ولا بارقة ضوء .. حتى النافذة
الخشبية الوحيدة التى يمكن أن ينفذ منها إلى الحجرة بعض أضواء النجوم قد أحكم
إغلاقها .

ويتعود البصر الظلمة شيئا فشيئا فيستطيع أن يميز فى ركن الحجرة الشيء
الوحيد بها الذى يمكن أن يكون فراشا وهو لا يعدو كنية خشبية عارية .. ومع
ذلك فإننا نجده قد خلا من راقده .. ولا نجد لعبده عليه أثرا .
أين عبده ؟ .. إننا نسمع رجع أنفاسه وزفراته .. ومع ذلك لا نرى له
وجودا .

وتخف الظلمة بعض الشيء ، ونستطيع أن نميز بقية محتويات الغرفة : قلة
فارغة وضعت بجوار الكنية ومنضدة خشبية عليها بعض فتات خبز جاف ..
ونوى زيتون .. وبقايا بصلة ، ومصباح غاز مطفأ . وكتاب ذو ورق أصفر
باهت .

وعلى أحد الجدران دق مشجب علقت عليه جاكته ، وبنطلون ، ومنديل
محللوى ، وطربوش متداعى الجوانب .

ولكن .. أين عبده ؟

لقد أطل برأسه من تحت الكنية .. وعيناه نصف مغمضتين وقد أخذ
يفركهما فركا شديدا بيديه .. حتى تم فتحهما وبدأ يسحب جسده بهدوء وتأن
من تحت الكنية .

وأخيرا ظهر عبده .. بجلبابه المخطط وجسده الهيكلى النحيل الطويل ، وعينه
الغائرتين ، وذقنه الذى تآثرت فيه الشعيرات فلا هو ملتج ولا هو حليق ، وأنفه

الضخم ، وطاقته التي حشر فيها رأسه ، والتي أهدتها إليه أم عبده عندما كانت علاقته بها على ما يرام .

وسار عبده على أطراف أصابعه متحسسا طريقه في الظلمة التي لم تنقشع بعد .. حتى وصل إلى المشجب ومد يده فأمسك بالبتلون ، ودفع فيه ساقيه دون أن يخلع الجلباب بل حشره فيه حشرا فبدا البنتلون منبعجا . لقد كان الجلباب لا يفارق جسده قط فهو جلباب بالليل ، قميص بالنهار .

وأرتدى عبده الجاكّة ولف المنديل المحلاوى حول عنقه ، وأتم هندامه بالطربوش ، ثم حرك إحدى قدميه يمنة ويسرة يبحث بها عن الحذاء حتى عثر عليه فدرس فيه قدميه الواحدة بعد الأخرى دون أن ينحني أو يمسك بالحذاء .

وكان حذاء عبده أحب شيء إليه في هذه الحياة ، فقد كان يشعر له بامتنان دائم وفخر مستمر .. إذ كان حذاء جيدا أصيلا « ابن ناس » وهو لا يزال يذكر تلك الفرصة التي أتاحت له أن يأخذه خطأ بدلا من حذائه البالي في إحدى صلوات الجمعة ويذكر بعد ذلك كيف بلى نعله فأخذه للأوسطى مخيمر العتقى « وأتحفه » بنعل كاوتش أوتومبيل ، نعل دنلوب سميك لا يبلى .

وانتهى عبده من ارتداء ملابسه ، أو على الأصح من نقلها من المشجب وتعليقها على جسده ، ثم تلفت حوله وتحسس جيوبه وانحنى مادايده تحت الكنية فأخرج نصف سيجارة دسه في جيبيه وخرج من الحجرة .

سيظن كل قارئ أنه خرج من باب الحجرة .. إذ ما الذى يحدو برجل مثله أن يخرج من حجراته من غير الباب ، وإذا لم يخرج من الباب فمن أين إذا خرج ؟ .

لقد فتح الرجل النافذة ، وكان الضوء قد بدأ ينسج خيوطا رقيقة ونظر أسفل النافذة يمنة ويسرة وكأنه اطمأن إلى أنه لا يوجد هناك من يرقبه ، ثم دفع بساقيه من النافذة واعتلى حافتها ومد ذراعيه وتعلق بإحدى المواسير الملاصقة للنافذة ثم سحب بقية جسده من داخل الغرفة ، وبدأ يهبط على الماسورة إلى الأرض .

فعل الرجل كل هذا بمنتهى البساطة .. كمن يأتي عملا اعتاده كل يوم ،

والواقع أنه قد اعتاده فعلا ، فقد مضى عليه أسبوع ، وهو لا يدخل غرفته ولا يبرحها إلا بهذه الطريقة .

ترى ما الذى اضطر عبده إلى كل ذلك ؟ ما الذى يجبر المسكين على عدم التمتع بالرقود فوق الكنبه ! وما الذى يغريه بأن يحشر جسده تحتها ويظل كذلك طول الليل ، ثم ما الذى يدعوه لأن يستيقظ مع الديكة فيتسلل فى الظلمة ويهبط من النافذة من ثالث دور !!؟

ما الذى يدعو إلى كل هذا ؟ .

أم عبده هى السبب ، أم عبده ، والفقر ، ولا أحد غيرهما ، فإنها لو رآته لانتهالت عليه ضربا ، وأرته على حد قولها « نجوم الضهر » فقد مضت عليه أربعة أشهر لا يدفع إجمار الحجره ، وقد وجد نفسه مخيرا بين أحد ثلاث : إما أن ينام على قارعة الطريق فيموت من البرد ، وإما أن يصعد إلى غرفته فيموت من الضرب ، وإما أن يتسلق المواشير ويتسلل إلى الغرفة ، ثم يختبئ تحت « الكنبه » وفى هذه الحال قد يموت وقد لا يموت ، فوجد أن الأمر الأخير أسلم عاقبة وأن احتمال النجاة فيه أكثر ، وخاصة بعد أن جربه فوجده أسهل مما يتصور .

ولكن أين أم عبده ؟ ومن تكون ؟ وكيف هى ؟

أم عبده يا سيدى القارئ ؟ وراك الله الشر ، وجنبك الأذى ، هى الشروهى الأذى ، أو كما قال — أعنى عبده — « غولة فى صورة آدمية » .

هل لديك الشجاعة الكافية لأن تبحث عنها معنى ؟ أو أن تسمع عنها منى .. تشجع يا سيدى وتجلد واصبر وانتظر ؛ ها هى أم عبده ، تستيقظ هى الأخرى ، هل رأيتها ؟

تقول لا ليست أم عبده ؟ بل هى والله العظيم .

تقول إنها ليست آدمية أصلا ؟ حقا ، وهذا ما جعلنى أجزم بأنها أم عبده . لو تخيلنا أن خليطا من الحيوانات الآتية : الفيل ، السيد قشطة ، البومة ، الحمار الوحشى ، الغوريللا ، الدب الأسود (لا الأبيض) قد تجمعت كلها (بين أبو الريش ...)

وافتقت على أن تنتج من اللبوة وليدا يجمع كل صفاتها جميعا ويأخذ من كل واحد منها أهم مظاهره ، لما كان ذلك الوليد شيئا يختلف عن أم عبده .
استيقظت المرأة ، ولنسمها امرأة من باب التجاوز ، وجلست في فراشها برهة تستريح من عناء النوم ، فلو كان الأمر بيدها لظلت مستيقظة ليل نهار ، ثم هبت من فراشها فقرقع الفراش من ثقلها وتوجع ، وعلا منه صرير لو ترجم إلى العريية لكان « اللهم هب لنا من لدنك رحمة ، اللهم لا تحملنا ما لا طاقة لنا به » .

هبت أم عبده ، فكأنها زوبعة هبت ، أو عاصفة ثارت ، ضجيج وعجيج ، صياح وصرخ أيقظ أهل الدار ، وأطلت برأسها من الباب تلقى بإنذارها اليومى إلى السكان وتحذره من أن يحاولوا مسح السلام حتى لا تبوش ، وتندرهم بأنها لو رأت قطرة ماء تصب عليها ، فستجعله يوما أسود « هى السلام حاتستحمل إيه والا إيه ، كفاية رجلكم الى طول النهار تدب عليها ، هو انتوا بتهمدوا » .
وانتهت أم عبده من إنذارها الأول ، وأحست بشيء من الطمأنينة فقد كان أكثر ما يقض مضجعها . هو خشيتها من أن تذيب مياه المسح حجر السلام .
واختفت بعد ذلك برهة . ثم سمع وقع قدميها تهبط السلم وتقرقه بمركوبها الأصفر قرعات منتظمة وتدندن بأغنية يستطيع المرء لو أرهف السمع ، أن يميز فيها « بينى وبينك كلام ، ويش وصلوا لاملك يا عبده » .
ثم صمت فجأة فقد تذكرت عبده . وصكت على أسنانها وحدثت نفسها في تهديد ووعيد :

« آه يا شحات الكلب ، بس لو تقع عليك عيني لأفرج الى ما يتفرج » .
وصمت لحظة .. ثم عادت تحدث نفسها مرة أخرى ، موجهة القول إلى عبده « أنا أم عبده المسيطة !! على سن ورمح !! ينصب على جربوع زيك .. يا ضلالى يا ابن الضلالى .. » .

وخرجت « أم عبده » من باب الدار عابرة سيدى زينهم إلى شارع سكة

البغالة . ثم اتجهت يمينا إلى ميدان زين العابدين .
وسارت بجوار حوض شرب الحمير الكائن في الميدان وهي تتلقى السلام ممن
استيقظ من أهل الحى .. عطية . بائع البليلة ولقمة القاضى ، وحبيشة يدفع
عربته الصغيرة التى قد وضع فيها قدرة الفول .. وكانت تحياهم لها تحيات خشية
ورهة فقد كانوا يخافون . بداءة لسانها وجبروتها .

وأخيرا وصلت « أم عبده » إلى مقر عملها .. وجلست أمام متجرها .
كان متجرها هذا عبارة عن طبلية كائنة على باب المديح .. وكانت بضاعتها
هى عفش الذبائح .. الرؤوس والكوارع والطحال والحلويات والكرش والنفوس
وكل ما تبقى من جسد الذبيحة بعد أن يأخذها الجزار .

ولقد قال عنها عبده من باب التشنيع إنها تدس فى بضاعتها أحشاء وكرشا
آدمية .. من ضحاياها .. فهى « قتالة قتلة » .. ولقد بلغها قوله فنظرت إلى
السماء داعية « عقبال ما يبيع كرشته وطحاله .. قادر يا كريم تسمعها منى دعوة
وليه » .

تربعت أم عبده أمام الطبلية .. بعد أن خلعت طرحتها السوداء ، وارتدت
فوق جلبابها هدوم الشغل ، وارتفع صوتها منادية على بضاعتها وهى تذب بمذبة
تصلح لأن تكون هى نفسها عشا للذباب ، وأخذت تترنم قائلة « هنا الحلويات
ولا يبيع الحلو .. إلا الحلو » .

وتلفتت أم عبده حولها فوجدت المعلم « أبأوة » زميلها فى المهنة . وقد أخذ
يرص بضاعته فزجرت بالتحية صائحة :

— صباح الخير يا معلم أبأوة .

— صباح الخير يا معلمه .. ازاي الحال ؟

— رضا ، أهى ماشية ، يوم غسل ويوم بصل .

— انشا الله غسل دائما يا معلمه .

— ومنين يا خويا حننجيبه العسل ده .

— منين؟! وانت أم العسل .. والقشطه والزبدہ .. ميت حلاوة على عيونك .

ثم أخذ الرجل يصفق بيديه طربا وأردف صائحا :

— ارزقها بقى يارب .. ميت ألف جنيه يارب .. مش عايزهم ناقصين مليم واحد ، وإلا ايه يا أم عبده .

— ياخى اتوكس ، قول نص ريال ، قول بریزه ، ميت ألف جنيه تعمل بيهم إيه ؟. والنبي تتوحدل فيهم ما تعرف تعدهم ولا تضيعهم .
— ازای بقى .

— طب قوللى تجيب إيه بسلامتك كده .

— احسبى عندك .

— هيه .

— أحشش بألف .

— ييقى فاضل تسعة وتسعين .

— واسكر بألف ، واكل نيفه بألف .

— ييقى فاضل سبعة وتسعين .

— وابرم بألف .

— ستة وتسعين .

— لأ ، حابرم بألفين ، والا بتلات الاف ، أصل انا احب البرم .

— باربع تلاف ، بخمس تلاف ، ييقى اثنین وتسعين ، وخذلك ألف شبرقة

ييقى فاضل واحد وتسعين ، تعمل بيهم إيه يا روح املك .

— وافرق بألف عيش وفول للسيدة عشان ارواح الجنة .

— عيش وفول ؟ دانت تفرق عيش وكباب ، زى بعضه ، خليك على

عقلك ، ، ألف تدخل بيهم الجنة ، عندك حاجة تانيه غير كده ، أديك حششت

وسكرت وبرمت واشبرقت ورحت الجنة بعشرة الاف .

— كفايه كده .

ثم رفع يده إلى السماء صائحا :

— كفايه يا رب عشرة الاف . بس ابعت .

ثم انطلق يقهقه هو وأم عبده ، وبعد برهة قالت أم عبده وهي تهش بالمنشة :

— يا خويه الناس بطلت تاكل كوارع والا إيه .

— كلهم سم لما بهرى مصارينهم ، هم دول ناس ، دول فقر دكر ، دانا

كنت زمان اسرح بالثلاثين جوز ماكانوش يستحملوا منى صباحية ؛ كنت

يدوبك اطلع من المديح على بركة قارون وعلى بال مالف شويه فى زينهم والبعالة

أكون جبرت ، زى دلوقت الواحد كأنه بينادى على قتيل .

— والله يا معلم أباه ، الدنيا ما بقت زى زمان ، حتى السكان بقم ملاوعين

ونصايين وولاد كلب ؛ وهو لولا انى أنا حمشه معاهم وموارياهم العين الحمره

كنت طلّت ملیم ؟

ثم أطلقت زفرة حارة وأردفت :

— مفيش مغبنى فيهم غير الشحات ابن الشحات : آه يا نارى لو اعتر فيه ،

لاخلى جتته حتت ، زى الى قدامى عالطليبه .

— هو مين ده ؟

— المنيل على عينه الى ما يتسماش ، عبده ، يعنى حا يكون مين غيره .

— هو لسه برضه ماداكيش الأجرة ؟

— هو انا باشوفه ؛ دا زى فص ملح وداب أدور عليه فى سلقط فى ملقط

مالوش أثر .

— يمكن مات ؟

— ما ييمتش يا خويه أبدا . أنا برضه قلت زيك كده لكن الى حيرنى انى

باطلع اشقر على الأوده ألاق فيها فتافيت أكل ، وزى ما يكون الراجل بايت فيها .

لكن بس بيعخش منين . دانا قاطعه عليه السكة .

- أقول لك أحسن طريقه ؟
— إيه ؟
— سكى الأوده بالمفتاح ، سنكرها كويس .
— سكيها ، وسنكرتها ، وعملت اللي ما يتعمل .
— وبعدين ؟
— برضه باطلع الاقي الفتافيت والبصل .
— عجيبه ! . يعنى يبخش منين ؟
— علمى علمك يا معلم أباه .
— يمكن من اخواننا الشياطين .
— شياطين ؟ ده شكل شياطين ؟ ده منيل على عينه وخايب .
— طيب وإيه يعنى وهو مافيش فى العفاريت خايين .
— لازم فيه .
— أهو ده تلاقية منهم .
— ياخويا بس بقى ماتلبشى جتى . أنا مش ناقصه ، اخفيها سيره بقى .
جاتو نيله مطرح ما راح .
ولنترك أم عبده الآن منهكة فى بضاعتها ما بين رؤوس وكوارع ، وفى حديثها مع المعلم أباه ، ولنتطلق فى أثر عبده لنرى ماذا فعل الله به .
سار عبده وقد وضع يديه فى جيبى بتطلونه ، ومر ببائع لقمة القاضي فغير ريقه بلقمتين على الحساب ، ثم انطلق فى طريقه ،
كان عبده يحس فى يومه هذا بشيء من الأمل يساور نفسه ، فهو مقبل على حياة جديدة ويشعر أن بؤسه وفاقة سيفارقانه وشيكا ؛ لقد بدأ الحظ يتسم له أخيرا بعد طول عبوس ، وبدأت الدنيا تقبل عليه بعد أن طال إدارها عنه .
وداخله الانتعاش وهزه الطرب ، وأخذ يفكر فى مشروع الزواج الذى يوشك أن يقدم عليه ، هذا المشروع الذى يضع نهاية لشقائه ووحده .

إنها صفقة ولاشك رابحة ، فمهما تكن المرأة ، ومهما بلغ بها القبح فهي برضه امرأة ، تملأ أحضانه وتقضى حاجته ، وتهدئ له في نومه الدفء والراحة ، وفي يقظته الطعام والملبس .

ثم أهم من ذلك كله ستقذه من الخطر الداهم والكارثة الكبرى : أم عبده . وبدأ يتخيل نفسه بعد أن حصل من زوجته المستقبلية على الإنجاب المتأخر ، ووضعه في جيبه . ثم ذهب متنفخ الأوداج مرفوع الرأس ، وقذف به إلى المرأة المجرمة ، ثم خلع حذاءه ، وأهوى بنعله الدنلوب الثقيل على رأسها ، وبصق في وجهها الخنزيرى بصقتين أو ثلاثا ، وأخرج لها لسانه ، ثم انطلق هاربا بعد أن فش غليله .

وأحس بالكثير من الراحة . وكان قد وصل إلى قهوة « الوردة البيضاء » فجلس على مقعد خارجها . وطلب جوزة ، على الحساب أيضا ، وظل يشد منها الأنفاس ، حتى بدأت الشوارع تعج بالحركة .

كان على عبده بعد ذلك أن يبدأ عملية التأهب للقاء عروسه الجديدة .. فقد اتفقت معه أم زكية (التي كانت الواسطة في هذا الزواج) على أن الست ستحضر لزيارتها قبيل العصر ، وأن عليه أن يطب عليهما في هذا الوقت كأنه قد أتى صدفة ؛ وبذا يتم اللقاء وتتم الصفقة .

وبدأ عبده عملية تهيئة نفسه للقاء بمسح الحذاء الطيب الأصل ، وكانت عملية مسح الحذاء عملية عويصة ، وكان أصعب ما فيها أن ماسح الأحذية لم يستطع أن يحدد بالضبط لون الحذاء !!

وعندما انتهى من عملياته انحنى عبده وهمس في أذنه « معاك شلن سلف ؟ » وكان الماسح معرفة قديمة مع عبده فمد يده في جيبه وأعطاه الشلن .

وذهب عبده بعد ذلك إلى الحلاق ؛ ثم إلى الطرايشى وتبقى معه بعد ذلك نصف فرنك ؛ ابتاع به كرافته من بائع حمل على ذراعه مئات الكرافات ؛ ثم وقف أمام إحدى واجهات المحلات وربط بها ياقة الجللاب .

وأخيرا حان الموعد وذهب عبده يتبختر ويدعو الله أن تكون العروس على شيء ولو قليل من الملاحاة والسمنة .

ووقف عبده أمام باب « أم ذكية » يشد الجاكته ، ويصلح الكرافته ، ويثبت الطربوش على رأسه ، ثم قرأ الفاتحة ، وطرق الباب :
— أهلا وسهلا ، أهلا .

وسحبت « أم ذكية » من يده ودخلت به إلى العروس .
ونظر عبده إلى العروس ثم وقع مغشيا عليه .
لقد كانت العروس : أم عبده !!

في المـاوردى

ولأول مرة في تاريخ كبرى المنيرة وعشش الماوردى ،
يفتقد الناس « فاطمة شيخون » وابنها « الششتاوى » .
فقد أقبل الزبائن في مطلع الفجر ليتاعوا مرتبهم اليومى من
المشيك ، فإذا بالمكان يخلو منهما . وهزوا رؤوسهم
تساؤلا ودهشا وأسفا . وخشوا أن يكون قد ألم بالمرأة
والولد مكروه .

لم يكن « ششتاوى » لقبه .. أعنى أن اسمه لم يكن محمد ششتاوى أو إبراهيم
ششتاوى .. بل كان اسمه ششتاوى فقط . أو قد يكون ششتاوى على ، أو
محمد ، أو أى شىء آخر تأكل على مر الزمن ، واحمى مع الأيام فلم يبق منه سوى
ششتاوى .

وقد يستغرب هذا الاسم ويتساءل سامعه : من أى شىء اشتق وإلى أى جهة
ينسب ؟ ولكن أمه — وهى المسئولة الأولى عن هذا الاسم — تقول إنها سمته
ششتاوى نسبة إلى الشتاء .. لأنه ولد في طوبة ، والسماء « تشتى » والجو
عاصف مكفهر .

وهكذا يتضح لنا أن الششتاوى عكس الصيفى ، ولسنا ندرى هل عنت أمه
بهذه التسمية شيئا .. أم أنه مجرد لفظ ألفته على عواهنه . ؟ على أى حال لا أظن
الاسم — على غرابته — يستدعى منا كل هذا البحث ، والفحص ، بل خير لنا أن
نعوده كما تعودده صاحبه ، وكما تعودده من حوله ، فأضحوا ينادونه به بلا أقل تفكير

فإذا تجاوزنا الاسم إلى صاحبه وتبعناه لرقبه في أول مرحلة من مراحل حياته ، وجدناه قد ربط من وسطه بحبل شد إلى أحد القوائم الحديدية لكوبرى المنيرة القائم على سكة حديد حلوان والموصل بين حى المنيرة من ناحية والماوردي وجينية ناميش من الناحية الأخرى .

ويبدو لنا الششتاوى فى وضعه هذا أشبه بكلب حائر أرهقه القيد . فهو يطوف حول العمود على قوائمه الأربع مبتعدا عنه بأقصى ما يسمح له الحبل ، وعلى مقربة منه تربعت صاحبتة أو أمه « فاطمة شيخون » ، وقد وضعت أمامها متجراها المكون من صينية تحوى البضاعة الملائمة ، والتي تتطور حسب ما تقتضيه الظروف . فتارة نراها مليئة بالمشبك ، وأخرى بالشريطة ، وثالثة بالكشرى أبو جبة ، ورابعة بالكسكسى .

والششتاوى وأمّه يكونان زوجا لا ثالث لهما . فقد توفيت — الفردة الثالثة — أبو ششتاوى وهو فى بطن أمه — أعنى الولد .. لا الأب — وكان ذلك فى معركة حامية فى المديح استعملت فيها السكاكين ، والكرالك ، والسواطير وكل ما فى المديح من أسلحة للقتال ، وانتهت المعركة بقتل أربعة كان صاحبنا أحدهم .

ورغم أن « فاطمة شيخون » كانت تدعو على زوجها فى كل عراك بينها وبينه بأن يموت قتيلا .. فقد ساءها كثيرا أن يستجيب الله دعاءها عليه فى هذه المسألة بالذات .. ويحقق — على أتم وجه — هذه الدعوة دون غيرها من الدعوات .

وحزنت المرأة بالطبع على زوجها حزنا بالغا ، وكان إحساسها بالفجيعة يزداد كلما قاربت الوضع . فقد أوجع نفسها أن ينزل الضيف الجديد مهيبض الجناح مكسور الحاطر ، وألا يصير أباه القوى الشكيمة المرهوب الجانب ذا الحول والطول بين جزارى المديح .

ونزل الششتاوى ذات ليلة . فلم يجد من يستقبله سوى الأم الطريجة ، وجارة أرقها الصباح فتطوعت للمساعدة .

ومرت الأيام فإذا بالضعيف الجديد قد ملأ عليها الحجرة الموحشة وأضاء لها الظلمة وبدد اليأس ، وإذا به يشد أزرها ويعينها — بمجرد وجوده — على احتمال الحياة ، بل لقد حجب إليها الحياة .. وأبداها لها أمرا ضروريا .. من أجله هو :
لقد وجدت في ذلك الكائن الضئيل القدر شيئا كثيرا أكثر من مجرد عزاء وتسلية ، وجدت فيه غرضا وغاية .. بعد أن كانت تحس أنها تحيا بلا غرض وتسير إلى غير غاية .

ولم يكن الششتاوى — والشهادة لله — جميلا بحال من الأحوال ، ومع ذلك فما انطبق المثل القائل بأن « القرد في عين أمه غزال » كما انطبق على صاحبنا وأمه .

لقد كانت تبصر فيه — وهو العجينة اللينة من اللحم — صورة طبق الأصل من أبيه ، وتتوهم أنه لو أمسك بشومة أو ساطور لاستطاع أن يسوى الهوايل .
وكان بينه وبينها ، وهو لا يعدو الأسبوعين عمرا ، أحاديث لا تنتهى ، تحدث إليه وتجيّب على نفسها نيابة عنه ، وتمضى الساعات الطوال وهي لا تكل ولا تمل كأنها تحدث أعذب الناس سمرا وأمتعهم حديثا .

وبدأت المرأة كفاحها من أجل الطفل ، فقد صممت على ألا يكون يتيما ، وعلى أن تغوضه بمجاهدا عن أبيه الراحل ، وخرجت إلى حياة الكفاح بأول صينية مشبك متخذة مقرها أسفل الكوبرى في ملفف مارة ، وموضع سقع ، ومكان لا يبعد كثيرا عن مسكنها في عشش الماوردى .

ولم يكن ششتاوى في أول أمره بالشئ الذى يعمل حسابه ، أو الذى يعرقل سير تجارتها ، فقد كانت ترقده على حجرها ، ملفوفا في هلاهيله .. مستغرقا في نومه ، فإذا ما أيقظه جوع أو ألم به ضيق .. ألقتته ثديها .. فانطبق عليه المثل « أطعم الفم تستحي العين » ولا تمضى دقائق حتى تستحي عينه ، ويستغرق في نومه .

ولكنه — مذ بدأ يحبو على أربع — قد أضحى شيئا خطيرا .. مقلقا مزعجا ،

ولم يعد قط يقنع بالنومة .. أو بالثدى .. بل بدا مناكفا مشاكسا .. جوابا
جوالا . تماما كأبيه .. متوثابا لا يستقر له قرار في عمر « .
لقد بدا الششتاوى .. من يومه .. مغامرا كأبيه . وكان أكثر ما نخشاه الأم أن
يندفع كأبيه في إحدى المرات فيورد نفسه موارد العطب .

كيف لا ، وهو لم يكذب يحبو على أربع .. حتى تسلل من جوارها فاندفع إلى
عرض الطريق ليستقر أمام أول عربة قادمة ، ولولا فضل الله ، ومهارة السائق
لطوته العجلات .

لقد صرخت يومها صرخة مدوية ، وعدت لتحمله من أمام العربة ، ولتلقى
سباب السائق وشتائم ، وتعود إلى مقرها وهي تضم الطفل إلى صدرها وتبكي
بحرارة وهو يخلق في فرع وارتياح .. لسنا ندرى أمن الموت ، أم من
النجاة منه ؟

ومن ذلك اليوم والمرأة تضعه وراءها أى تحجزه بين جسدها وبين السور القائم
على جانب سكة الحديد .

و ذات يوم بحث عنه وراءها فلم تجده ، وأمامها فلم تجده ، وفي عرض
الطريق فلم تجده ، وأخيرا وصل إليها صوته وقد استقر على شريط الوايور بعد أن
نفذ من خلال السور وأخذ يلهو بالحصى .

وروعت الأم ، وانطلق صراخها يدوى في الفضاء ، وذعر الناس وأقبلوا
عليها ، وانطلق بعضهم فأحضر لها الطفل في لمح البصر ، وأخذت تضمه إلى
صدرها في لفة وهي تلهث كأنها عائدة من سباق . سباق مع الموت .

واستقر رأيها بعد ذلك على أن خير طريقة تحافظ بها على الطفل المغامر وتؤمنه
من التهلكة هي أن تربطه بجبل من وسطه وتشده إلى إحدى قوائم الكوبرى .

وهكذا انتهى الأمر بالششتاوى إلى الربط في العمود ، واستراحت أمه من
مغامراته الخطيرة وأطمأنت إلى أن شقاوته — مهما بلغت — فلن تبعده عنها أكثر
من متر أو متر ونصف — وهو كل ما يسمح له به قيده — من جولان في المنطقة
الآمنة .

ومع ذلك فقد أصبر الششتاوى على أن يغامر بنفسه حتى فى المنطقة الآمنة وأن يوردها موارد التهلكة فى هذه الحدود الضيقة . وأن يروع أمه بصراخه ذات يوم فالتفتت إليه فزعة مرتاعة فإذا به — لا تدرى كيف — قد لف الحبل حول عنقه وأخذ يجبو حول العمود حتى ضاق عليه وكاد يشنق به نفسه .

ورأت الأم أن مسألة الحبل لم تعد ذات قيمة ، وخاصة أن الششتاوى منذ بدأ يتعلم المشى أضحي من العسير عليها تقييده فى هذه الحدود الضيقة .. فلم تر من إطلاقه بدا وطمأنت نفسها بأن الحذر لا يمنع القدر ، وأنه خير لها أن تترك الأمر لله العلى القدير .

وأخذت الأيام تمر ، والششتاوى يزداد على مرها نموا ، وأمه ما زالت قابضة فى مقرها تحت الكوبرى فى جهادها الصامت .. هى وصينية المشبك والشطيطة والكشرى . لا تضىء حياتها سوى بارقة واحدة ، ولا تسعى فى حياتها إلا لغرض واحد ، ولا تعيش إلا بأمل واحد هو الششتاوى .

وبلغ الششتاوى مبلغ التلاميذ ، واستحق فى نظرها أن يذهب إلى الكتاب فقد كان أملها فيه عظيما ، وكانت تعتقد أنه لا بد أن يكون أفنديا .. حتى يأمن على الأقل عادية الموت قليلا فى المذبح كأبيه .

أجل .. إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وقد لدغت من المذبح ، ومن فن الجزارة مرة .. فمن الحمق أن تدفع بابنها إلى السبيل الشائك ، لتلدغ من الجحر مرة أخرى .

ولأول مرة فى تاريخ كوبرى المنيرة وعش الماوردى يفتقد الناس « فاطمة شيخون » وابنها الششتاوى . فقد أقبل الزبائن فى مطلع الفجر ليتاعوا مرتبهم اليومى من المشبك . فإذا بالمكان خلو منهما ، وهزوا رؤوسهم تسأولا وعجبا وأسفا ، وخشوا أن يكون قد ألم بالمرأة أو الولد مكروه ، ولكن المعلم « سيد فرخه الطعمجى » أنبأهم نبأ عليم ببواطن الأمور بأن الششتاوى سيذهب اليوم إلى المدرسة .

ولقد كان الرجل مصيبا فيما قال . ففى هذه اللحظة بالذات ، كانت المرأة قد أتمت تنظيف ابنها وألبسته جلبابه الجديد وطربوشه الذى ابتاعته له من مولد الماوردى ودست قدميه — لأول مرة — فى صندل لامع براق . وكانت قد أعدت فى المساء صينية الكسكسى ، وأتقنت طهيها ، لا لبيعها ، بل لإهدائها إلى « الشيخ زكى » ناظر مدرسة السعادة ، كرشوة أولية لقبول ابنها ، والتوصية عليه .

وربطت المرأة نقودها — رايالا وثلاثة قروش وأربعة مليمات — فى خرقه صغيرة دسها فى صدرها .. ثم حملت صينية الكسكسى على رأسها ، وسحبت الششتاوى بإحدى يديها .

ووصل الموكب الصغير إلى المدرسة سليما ، ولم يكن وصوله سليما بالأمر السهل ، فقد كان من الصعب على المرأة أن تحتفظ بالصبي فى يدها ، وهو المقفاز المتواثب ، المعجون — على حد قول أمه — بمية العفاريت . فقد استطاع الزوغان منها أربع مرات : المرة الأولى أغرته عربة حنطور بالشعبطة وراءها فلم يستطع المقاومة ، وأفلت من يد أمه وأخذ يعدو وراء العربة فاعتلى الخشبة الكائنة فى مؤخرتها وظلت أمه تصرخ وتعدو بصينية الكسكسى على رأسها ، حتى تطوع أحد المارة ، فصاح بسائق الحنطور محذرا : « كرباج ورا يا أسطى » ، فقفز الششتاوى إلى الأرض قبل أن يهوى عليه الكرباج .

والمرة الثانية . كانت إحدى عربات الرش هى سبب الإغراء . فقد كره الششتاوى أن يرى زملاءه من أهل الحقة يتواثبون وراء العربة مغرقين نصفهم الأسفل بمائها الرشاش ، وأن يظل وحده المحروم من هذه النعمة ، ولعن المدرسة فى سره ، وود لو استطاع التخلص من قبضة أمه ، ولكنه وجدها تطبق عليه جيدا . فلم ير هناك خيرا من التحايل عليها حتى تفكك إساره ، وبدأ يعرج فى مشيته .

والتفت إليه أمه متسائلة :

— مالك ؟

— الصندل وجعنى .. يمكن فيه زلطه .

وبيساطة تركت أمه يده ليخرج الزلطة من الصندل . فلم يكذب يحس بالحرية حتى اندفع بأقصى سرعة إلى عربة الرش ، ولاحقته صيحات أمه فزعة مرتاعة :
« يا واد يا ششتاوى .. يا مقصوف الرقبة » .

ولم يفلح في إعادته سوى توسل أمه إلى العرجى بأن يغلق المياه .
ولطشته أمه قلمين ، ولدعته قرصتين ، أفلحتا في انتزاع بعض الصرخات السطحية ، وفي ردهه إلى حين .

أقول إلى حين .. أو على الأصح ، إلى حين قصير .. إذ لم يكذب ششتاوى يستقر بجوار أمه بعد أن أغرق نفسه بالمياه حتى بدا في الأفق خطر كبير هو الشيخ أحمد بسيفه الخشبي وعمامته الخضراء .

والشيخ أحمد هذا هو أحد مجاذيب السيدة زينب ؛ يقضى يومه طائفا بالطرقات والحوارى .. محاطا بمجهره من الصبية منشدا معهم « الله حى .. عباس حى .. يضرب بمبه وهو حى » .

ويعتبر ششتاوى .. على صغر سنه .. ساعد الشيخ أحمد الأيمن ، وعونه الأول ومنظم الهتاف ، وقائد المظاهرات ، وكان الشيخ أحمد يسير في المقدمة وخلفه الششتاوى وإخوانه مكونين جيشا عرمرما .. يغزون به مختلف الأحياء .

وبدا الشيخ أحمد في هذه اللحظة وقد ساق خلفه جيشه الذى لم يك ينقصه سوى الششتاوى .

وفجأة رفع الشيخ أحمد سيفه الخشبي في الهواء فلم تشعر المرأة إلا وقد سقط ابنها بجوارها منبطحا على الأرض وهو يصيح بها أن ترقد مثله ، وفزعت المرأة وتملكها الذعر ولم تملك سوى الجلوس على الأرض بصينية الكسكسى وهي تساءل في رجفة عن جليلة الأمر .

وهمس الششتاوى :

— ألا ترين الشيخ أحمد قد رفع سيفه .. لابد أنه قد رأى العدو ؟
ونظرت المرأة إلى الشيخ أحمد وإلى الششتاوى وصاحت مغيظة :
— إلهى يفضحك ، أنت والشيخ أحمد .. قوم فر .
وتابعت سيرها ، وقد شدت قبضتها على الصبي بعد أن أقسمت ألا تتركه إلا
أمام الشيخ زكى ...
ومع ذلك فلم تمض لحظة قصيرة حتى زاغ الششتاوى للمرة الرابعة
والأخيرة .
لقد كان الإغراء فى هذه المرة أكبر من أن يقاوم . لقد كانت مسألة ترام ،
والششتاوى لا يطيق أن يمر به ترام دون أن يتشعبط على الشمال .
وهكذا انطلق الششتاوى يعدو وأمه تصيح وتولول ، حتى استقر به المقام
على سلم الترام فأشار إليها صائحا بأن تلحقه على المدرسة .. ما دامت لا تستطيع
الشعبطة مثله .
ووصلت إلى المدرسة فوجدته فى انتظارها فساقتها أمامها إلى غرفة الشيخ زكى
ناظر مدرسة السعادة .
وكانت حلة الكسكسى براءة استهلال من « فاطمة شيخون » فقد أشرق لها
وجه سيدنا وانفرجت أساريره وإن كان قد حاول أن يتمنع فى أول الأمر مدعيا أن
« مافيش لزوم » ، وأن ششتاوى كابنه ، وأن المرحوم أباه كان له أفضال عليه ،
وأنه لا ينسى له الكوارع والفشش التى كان يتحفه بها بين آونة وأخرى !
وهكذا تم قبول ششتاوى كطالب علم ، ووقفت أمه لوداعه قبل أن يختفى
داخل المدرسة ، وأحسّت بألم الفرقة يعتصر قلبها وانحنت عليه تضمه إليها وقد
اغرورقت عيناها بالدموع ، وهتفت بالشيخ زكى :
— خلى بالك منه يا سيدنا الشيخ .
ثم ضمت إليها ششتاوى ضمة أخيرة كأنه ذاهب إلى ميدان قتال وقالت له :
— مش عايز حاجه يا ششتاوى ؟

وهز الششتاوى رأسه ، وطلب منها أن تنبئ الشيخ أحمد بأنه ذهب إلى المدرسة وأنه سيعود إليه بعد الفراغ منها .

وعاد الششتاوى إلى البيت في ذلك اليوم .. بعد أن اشتبك فيما يقرب من خمس معارك فقد فيها زر طربوشه وفردة صندل ومزق فيها جلبابه الجديد . واستقر رأى الأم منذ ذلك الحين على أن تنقل مقرها من تحت الكوبرى إلى باب مدرسة السعادة ، حتى تضمن بقاءها بجوار ابنها ومرافقته في غدوه ورواحه .

وهكذا أمنت عليه من كل شيء ، وزدعته عن ركوب المخاطر إلا شيئا واحدا هو الشيخ أحمد ، والعدو وراءه ، والفتاف له ، والمحاربة في جيشه . وظلت الأم ترى في الشيخ أحمد مهلكة كبرى ، وعدوا مبينا ، فلشد ما كانت تخشى على صبيها من العدو وراءه ومن الرقود على قارعة الطريق والعربات غادية رائحة .

وفي عودة لها ذات مرة من المدرسة وقد سارت وصبيها إلى جوارها التقت بالشيخ أحمد منطلقا بجيشه يحارب العدو الوهمى المجهول رافعا سيفه الخشبي مهددا منذرا ..

و لم يكذ يراه الششتاوى حتى انطلق إليه منضمًا إلى جيش الصبية ، وثارت أمه وعدت وراءه تريد استعادته واعترضها الشيخ أحمد طالبا منها أن تكف عن الخوض بين جنوده الذين يحارب بهم العدو وإلا اضطر إلى أخذها أسيرة . وأمسكت المرأة بمنخافه وكالت له السباب صائحة به :

— يا راجل يا مخبول يا مجنون عدو إيه جاك عدو يحش رقبتك .

وهز الشيخ أحمد رأسه مشدوها يتعجب من جهلها وحمقها ، وكيف أنها لا تعرف العدو الذى يحاربه ، ثم شد رأسها إليه وهمس فى أذنها :

— ده خد منى ثلاثه .. مرة واحدة .

ويدت في صوته رنة بكاء واختلجت عضلات وجهه ؛ وأردف قائلاً :
— ثلاثة أولاد مرة واحدة ، خداهم منى .. حرق قلبي .. وقطم وسطى .
وأحست المرأة برجفة تسرى في جسدها وتركت الرجل وهي تهمس في
شفقة بالغة :

— ثلاثة أولاد مرة واحدة ؟ الله يكون في عونك .
ومدت يدها فأمسكت بالشتاوى وضمته إليها في حرص وقد اغرورت
عينها بالدموع .
وفجأة سمعت أحد الصبية ينادى :
— ششتاوى ..

وتلفت الششتاوى فإذا بأحد رفاقه يناديه وقد تسلق إحدى مركبات الترام ،
واندفع الششتاوى إلى صاحبه ، يريد أن يلحق به في الترام في اللحظة التي اندفع
فيها ترام من الاتجاه الآخر ، وانطلقت في الجو صيحة مدوية وفي غمضة عين كان
الششتاوى أثراً بعد عين .

ووقفت المرأة في مكانها كالمصعوقة ، ثم اندفعت تحتضن الأشلاء وهي تعوى
ككلب جريح ، وفجأة أبصر بها الناس تترك الجثة وتعدو إلى حيث وقف الشيخ
أحمد يحملق في ذهول .. فتركع أمامه مولولة صائحة :
— خده منى .. الحقنى .. قول له يرجعه .

وربت عليها النخبول بخنان ورفق وقال مشجعاً :
— ماتخافيش .. خليها على الله .

ثم ضرب بسيفه في الهواء .
ومنذ ذلك اليوم لم ير الشيخ أحمد قط وحيداً .. لقد زاد عدد المخايل
واحداً .. وكانت « فاطمة شيخون » تلازمه أينما ذهب .. لقد كانت تحارب
معه العدو المشترك .. عله يعيد إليها ما أخذ !

في سيدى الحبيبى

وقد شب « زكى » وترعرع فى حانوت « المعلم عبده » الذى أواه يتيما ، وظل يستخدمه نظير إطعامه وإيوائه .. ولم يكن يعرف له مقرا سوى الحانوت وسيدى الحبيبى .. يقضى فى الأول يومه ويبيت فى الآخر ليلته ، لا يكاد يفارقهما لحظة واحدة .

الزحام على أشده ، والزبائن قد تجمعوا أمام باب الحانوت الكائن فى سيدى الحبيبى بشارع السد البرانى ، يتدافعون بالمناكب ويتضاربون بالأكتاف ، وقد امتدت أذرعهم وارتفعت أيديهم قابضة على القروش مطالبة بالبضاعة ، وتعالى صيحاتهم مستعجلة متعجلة متلهفة :

« بثلاثه صاغ بساريه يا عم عبده . ببريزه بلطى وحتتين جزل وكتر الدقة . يا الله يا عم عبده أنا بقالى ساعتين واقفه ، عندك شبار ؟ عايز حنتين تعابين يا عم حسن . اشهل شويه يا عم عبده ، هوإيه يا اختى ده .

وفى وسط هذه المظاهرة يبدو « عم عبده من وراء الزجاج فى حركة دائبة كأنه المكوك .. تلتقط أصابعه قطع السمك المقلى من الصوانى النحاسية الصفراء المفروشة بعيدان خضراء من بقدونس وجرجير وتقذف بها فى عجلة لتعبئتها فى قراطيس جاهزة من الورق ، وتقذف وراءها بلفائف صغيرة معبأة بالدقة ، ثم يمد يده إلى أعلى مناديا جماهير الزبائن :

— خمسه بلطى .

فتمتد يد الزبون المطلوب ويصيح معلنا عن نفسه « أيوه هنا » ثم يدفع الخمسة قروش ويتسلم قرطاس السمك .. ويقذف « عم عبده » بالنقود في درج بجواره ثم يعاود عملية التعبئة ، وقد بدت على أساريه علامات الجذ وتقارب حاجباه الثقيلان اللذان يتهدلان على جبينه كأنهما تندة أو مظلة وقد تجعد ما بينهما في تجهم وصرامة ، وارتفع طرفا شاربه حتى كادا يلتقيان بأطراف حواجه لتكون في وجهه مستطيلا من الشعر تبدو في داخله عينان زائغتان ظاهرتا الحول ، ووضع الرجل على رأسه ليدة بيضاء ملفوفة بلاسة حريرية وبدا رأسه الضخم وحواجه الثقيلة وشواربه المبرومة لا تتناسب قط مع ضآلة هيكله ونخافة جسده .
وبين آونة وأخرى يتلفت الرجل إلى داخل الحانوت ليطلق صيحة مزجرة منذرة :

— اخلص يا وادي زكي ، الصواني قربت بفضي ، اعمل لك همه الحسن
اضربك ضربه اطيير نفوخك .

ونترك عم عبده والزبائن في صياحهم وضجيجهم ونتجه إلى داخل الحانوت لنلقى نظرة على ما به .. فنجد الصياح قد خف واستبدل به ضجيج من نوع آخر ، هو ضوضاء وابور الجاز وطشطشة قلى السمك في الزيت ، وفوق كل هذا .. غناء الواد زكي .

والحانوت من داخله لا يسر الناظرين .. هباب يكسو السقف والجدران حتى لا تستبين من السواد لونها ، وحوض وصنبور ، وبالوعة في أحد الأركان ، وأرض لزجة رطبة مليئة بمخلفات السمك من زعانف ومصارين ونخاشيش ، والجو قد انتشرت به رائحة الزفارة ورائحة القلية والثوم والكمون .

ووسط هذا التبلوه الرائع من الهباب والزفارة والقذارة وقف « الواد زكي » أمام الوابور وطاسة القلية ، وبجواره طست ملء بقطع السمك النيء وقد أمسك بسيخ يقلب به السمك في الطاسة ، ويدندن في طرب :

« طلعت فوق السطوح سرقوا اللباس منك يا عبده .. لا والنبي يا عبده » .

وتنطلق صرخة مدوية من عم عبده ويهتز شاربهُ ويصيح مهددا :
— التفت لى فى إيدك .. لحسن والى نبا النبى أجى أقطعك جزل واقليك فى
الطاسة اللى قدامك . آدى اللى انت شاطر فيه . لا والنبى يا عبده . دم لما
يلهفك .

ويتمم « زكى » ببعض كلمات الاستياء ويعتذر بأنه يقصد عبده آخر ، ثم
يخلد إلى الصمت .

ومن العجيب أن تؤثر تهديدات المعلم عبده هذا التأثير فى زكى . فقد كان
التهديد بأن يضربه ضربة تطير نافوخه وأن يقطعه جزلا ويقلبه فى الطاسة يبدو
مضحكا جدا .. لأن زكى هذا الذى يصر المعلم عبده على تسميته « بالواد » .
كان يمكن أن يصنع منه أربعة كالمعلم عبده ، فهو مخلوق ضخم طويل .. عريض
المنكين ، مفتول العضلات ، كثيف شعر الصدر والذراعين ، كبير الرأس
والوجه ، ضخم التقاطيع ، كأنه صورة مكبرة لإنسان ، أو كأنه من مخلوقات
جلفر الوهمية .

وبقدر ما أسرفت الطبيعة فى صنع جسده بقدر ما بخلت فى صنع عقله — إن لم
تكن نسيت أن تهب له عقلا — فهو أغبى خلق الله ، وقد عرف منذ نشأته الأولى
باسم زكى الجحش .. حتى صار علما له ، وانقرض اسم أبيه فلم يعد له ذكر ،
وقد شب وترعرع فى حانوت المعلم عبده الذى آواه يتيما ، وظل يستخدمه نظير
إطعامه وإيوائه . ولم يكن يعرف له مقرا سوى الحانوت ، وسيدى الحبيبي ،
يقضى بالأول يومه ويبست فى الآخر ليلته .. لا يكاد يفارقهما لحظة واحدة ،
حتى بات يألف السمك أكثر مما يألف الناس ، ونشأ بين الاثنين — أعنى بينه
وبين السمك — نوع من الصداقة والود والثقة .

وكان زكى شديد التفور من الناس ، ينظر إليهم وقد تجمعوا وراء الزجاج
يتصايحون ويتخاطفون قراطيس السمك ، كما ينظر الإنسان إلى حيوانات
مفترسة ، وكان أكثر ما يسوءه عندما يخلو إلى نفسه ويجلس ليفكر — بفرض أن

فى رأسه شىءا يفكر به — هو أن الله قد خلقه آدميا ولم يخلقه سمكة .
ما حاجته إلى كل هذا الجسد الضخم ، والرأس الكبير المكسو بالشعر ،
والأطراف الطويلة ؟ أين فمه المتسع من فم السمكة الصغير ؟ وأين ساقاه من
ذيلها المزركش المنتظم ؟ وأين ذراعه من زعانفها الدقيقة الرفيعة ؟
لشد ما كان ببعض هذا المنظر الآدمى القبيح ، ولشد ما كان ينظر إلى الناس
من وراء الزجاج فى خوف وقلق .. وكان أكثر ما يضايقه أن السمك المسكين لا
حول له ولا قوة ، وأنه يستسلم راضيا صاغرا للتقطيع والقتل ، وأن هؤلاء
الوحوش يلتمونه لقمة سائغة .

آه لو أصبح سمكة ، لالتهم كل هؤلاء الناس وانتقم للسمك المسكين .
وهكذا ظل « زكى الجحش » فى كرهه للناس وانطوائه داخل الحانوت بين
السمك .. كل أمنيته فى الحياة هى أن يصبح سمكة ، حتى أبصرها ذات مرة وراء
الزجاج بين جبهة الزبائن من الوحوش الآدمية ، فإذا برأسه يدور .. وإذا به
يترنخ كالثمل !

من ؟

« سنه أويه » ولا أحد غيرها . من غيرها يستطيع أن يفعل به ما فعلت ؟
رآها أول مرة وقد انحسر جسدها بين الأجساد المتراسة وعلا صوتها ينادى
المعلم عبده طالبة منه بخمسة قروش بياض .
ورن صوتها فى أذنه رنة تختلف عن بقية الأصوات ، رنة بها حلاوة غريبة ،
وتطلع إلى وجهها وأخذ يحملق فيه بذهول .
بياض ١٩

ما حاجتها إلى البياض ؟! وهى نفسها بياضة تملأ اليدين والذراعين ؟
وعادت البياضة تصبح منادية على المعلم عبده وما من مجيب ، وأخيرا أخذت
تدفع الناس بيديها شاقة لنفسها طريقا بين الأجساد حتى وصلت إلى باب
الханوت ودلفت منه .

— ما شاء الله ! ما هذا ؟ إنه لم ير قط آدميا بهذه الكيفية ، هذا الوجه المستدير ، والحدان الموردان الشبيهان بالطماطم ، والمنديل المائل على أحد الحاجبين والورود الصغيرة المدلاة منه على شعرها المنسدل على الكتفين .
والكتفان .. أجاركم الله .. قد انزلت من فوقهما الملاءة السوداء فكشفت عن قميص رفيع أبان معظم الكتفين .. بياضهما ونعومتها ، والذراعين المليعتين ، والصدر الثائر على غطاءه ، المندفع في عنف ، القافز في تحرر .
وسمعتها تصيح في غضب واستياء :

— إيه ده يا معلم ده ؟ بقالى نص ساعة أهاتى لما صوتى اتنبح ما حدش سائل فى .. عايزه بخمسه صاغ بياض .

ولم يرد عليها المعلم عبده بل صاح فى زكى :

— اخلص يا واد يا زكى لحسن الصينية فضيت .

واسترسلت البياضة تقول :

— يا الله والنبي يا زكى يا خويه ، اخلص اعمل معروف .

وأحس من قولها برجفة سرت فى جسده .

« يا زكى يا خويه » ؟ لقد كانت أول مرة يخلع عليه مثل هذا اللقب ، ومن ؟

من البياضة الساحرة الرائعة ؟

وانهمك زكى فى العمل بهمة ونشاط ، وقد أدار وجهه من فرط الخجل ، فقد

أحس أنه لا يستطيع أن يحتمل طول التحديق فيها .

وانتهت الليلة على خير ، وجلس زكى فى خلوته بالحنوت بين السمك يحلم

بالبياضة !

ومضى يومان بعد ذلك ، وزكى يحملق فى الزبائن ، شارد الذهن ، يبحث

عنها فى لهفة دون أن يجد لها أثرا .

ثم حضرت فى الليلة التالية ، وظلت تحضر بعد ذلك كل ليلة لتبتاع السمك

ولتلقى على زكى ما تيسر من التحيات الرقيقة .

وهكذا أنشب الحب أظافره في قلب زكى الجحش .. قلب غشيم لم يعرف قط ما هو الحب ، ولا تطلع من قبل إلى شبح امرأة .

وظل زكى راضيا من البياضة بتلك التحيات الخاطفة ، قانعا بمرآها كل ليلة عندما تحضر لتبتاع السمك . حتى كان ذات يوم وقد وقف مع « سيد الخضرى » فى حانوته المجاور لحانوت المعلم عبده يسأله حزمة بقدونس ، عندما سمع صوت قبقاب يطرق على أرض الرصيف بدقات موسيقية منتظمة ، ثم سمع صوتا ساحرا يصبح به :

— العواف ياسى زكى ؟

وتلفت وراءه .. وكان يقف بالقميص والسروال ، فإذا به يراها هى بعينها ودمها ولحمها ، وقد أخذت تتشدد بلبانة بين أسنانها ، وتصدر منها بين آونة وأخرى طرقة رائعة اللحن .

وارتبك زكى ، فقد كانت مفاجأة شديدة الوقع على نفسه ، ونزل عليه — كما يقولون — سهم الله . فلم ينبس بينت شفة ، وعادت البياضة تقول :

— يوه ، يا خويا ما تنطلق . العواف ياسى زكى .

وأخيرا من الله عليه بالحديث ، فأجاب فى صوت مبحوح :

— الله يعافيك .

وأخذ « سيد الخضرى » يصفق بكفيه تصفيق غزل ، ويلعب حواجبه ويصيح بالبياضة :

« يابت يا سونه . أموت فى الكوارع البلدى » .

ودهش زكى ، ونظر إلى سيد فى استنكار ، ثم سأله مستفسرا :

— سونه ! اسمها سونه ؟

وأجاب سيد متسائلا فى دهش :

— الله ! أنت مش عارفها ؟ دى البت سنیه أویه ، بت زى اللوز .. بتشتغل

فى بيت زكيه العايقه .

— بتشتغل إيه ؟

— يعنى حاتشتغل إيه فى بيت زكية العايقة ؟ ناظره ؟ والا واعظه بتشتغل مره يا روح أمك .

— يعنى إيه ؟

— لا .. دانت نيله أوى ، عمرك ما رحت بيت زكية العايقة ، صدق من سماك جحش ، تحب تروح معايا الليله دى ؟

وبدا على زكى عجب شديد وتساءل غير مصدق :

— نروح عند سونه ؟

وعاد سيد يؤكد :

— أيوه عند سونه . إيه . صعب ؟ إيدك على بريزه .

وهز زكى رأسه فى أسف ، فعاد سيد يقول :

— ما معاكش بريزه ؟ بلاش . أنا عازمك على حسانى الليله دى .. استثنانى هنا بعد ما تشطبوا .

ومر اليوم بزكى وهو ذاهل شارد لا يدري مما حوله شيئا ، حتى حانت الساعة الموعودة ، ورحل المعلم عبده إلى بيته وأغلق زكى الجانوت ، وبدل أن يأوى إلى سيدى الحبيبي كما تعود أن يفعل ، ارتدى جلبابه وجلس ينتظر فى الخارج وقد أخذ قلبه يندق بعنف ...

وأخيرا حضر سيد ، وسار الاثنان فى صمت حتى بلغا شارع سليم ، واستمرا فى السير فيه حتى عبرا شارع زين العابدين ثم دلفا يمينا إلى زقاق مظلم ، ثم أخذ سيد يجول به خلال الأزقة منحذرا به بمئة ويسرة وهو يحث الخطى وراءه فى صمت وقد شرد ذهنه فى « سنية أوية » ، وأخذ يتخيلها وقد سقطت عنها الملاة السوداء ووقفت أمامه بالقميص الخفيف الذى لا يؤمن على سر ، فهو لما فى داخله أفضح وأفصح وبما احتواه أبين وأشرح ، ثم زاد به الطمع فى الخيال فأخذ يجردها من غلاتها الرقيقة وتراءت له عارية من كل سوء ، أو — كما يقولون — يا مولاي كما خلقتنى .

وقبل أن يتمعن فيها وجد صاحبه وقف فجأة أمام باب خشبي واطيء فأصابه ارتباك شديد وهمس متسائلا في ذعر :

— وصلنا ؟ وهو ذا بيت زكيه العايقه ؟

— لسنه يا جحش .

ثم أخذ ينقر على الباب بسبابته نقرة معينة .

وعاد زكي يهمس في دهش :

— أمال ده إيه ؟ حانعمل إيه هنا ؟

— حانوزن دماغنا يا تور ، حانعمر الفارغة ، خش ورايا .

وفي تلك اللحظة فتح الباب ببطء وأطل من ورائه وجه أخذ يتفحصهما في

حذر ، ثم صاح في النهاية :

— أهلا يا ابو السيد ، مين ده اللي معاك .

— الواذ زكي الجحش صبي المعلم عبده .

ودخل سيد ، ولم يملك زكي إلا أن يهرول وراءه في دهش وذ هول وهو يحاول أن يفهم ما عناه صاحبه بقوله « نوزن دماغنا » و « نعمر الفارغه » وظل يسير برهة في سرداب مظلم أفضى به أخيرا إلى ضوء باهت يصدر من مصباح زجاجي ، وسرت إلى أنفه رائحة غريبة ليس له بها سابق معرفة .

وسمع سيد يلقي التحية بصوت جهورى « السلام عليكم » ، وتعالى بضعة أصوات مختلفة النغمات والنبرات مجية التحية : « عليكم السلام يا ابو السيد ورحمة الله » . وأخذ زكي يفحص المكان بعينه فإذا به حجرة ضيقة قد احتشد فيها بضعة زجال جلسوا على الأرض في شبه دائرة وقد انكأوا بظهورهم على جدرانها الرطبة .

واخذ سيد مكانه في الدائرة وجذب زكي فأجلسه بجواره ، وصاح رجل يتخذ مكان الصدارة مناديا بصوت أجش :

— يا واد يا دقدق . ماتيا الله يا واد .

— حاضر يا معلم .

وظهر دقق من الحجرة المجاورة وقد حمل في يده جوزة صغيرة لا تكاد تفترق عن الجوزة التي أبصرها زكى على المقهى الكائن أمام حانوتهم إلا في صغر حجمها وقصر غابتها .

ودارت الجوزة على الحاضرين ، وأخذ كل منهم يجذب منها نفسا طويلا ثم يسلمها إلى جاره ، حتى وصلت إلى سيد الذى أسلمها بدوره إلى زكى . ومضت برهة وزكى قد أمسك الجوزة في يده حائرا مذهولا ، وأخيرا ضربه سيد بكوعه وهمس به :

— شد منها نفس يا غشيم ، دانت نيله قوى .

ووضع زكى طرف الغابة في فمه وجذب منها نفسا طويلا جعل جاره الآخر يصيح به :

— حيلك حيلك ، كفايه كده .

وسلم زكى الجوزة لجاره ثم أخذ يرقبها تنتقل مرة أخرى في دورة ثانية حتى وصلت إليه :

وأحس زكى بعد النفس الثانى بضيق فى تنفسه وكأن شيئا ثقيلا يجثم على صدره ، ولكنه أخذ يخف رويدا رويدا حتى أحس بنفسه قد بات خفيفا كأنما يوشك أن يطير ، وأحس كأن ذراعيه قد تحولتا إلى جناحين .. ونظر إلى الحاضرين فإذا بهم يتضاءلون وينقرضون حتى أضحوا كالتل ثم اختفوا نهائيا . وتلفت زكى حوله فإذا بجو الحجرة قد ملئ بدخان أزرق ووصل إلى أذنيه صوت أنغام لطيفة تأتى من بعيد استطاع أن يتبين خلالها صوت سنية وهى تهف : « العواف ياسى زكى » .

وأحس ببرودة لطيفة ، ووجد الدخان يتأقل حوله ويتكاثف ، وبدا له أنه محاط بضباب ثقیل أخذ يتحول تدريجيا إلى قطرات ماء حتى أضحى محاطا بالماء من جميع الجهات ، ولم تجد قدماه ما تستقران عليه ، بل أعجب من ذلك أنه لم

يجد له قدمين بالمرّة ، بل وجد بدلها ذيلًا منمقا كذيل السمك .
عجبًا ! كيف حدث هذا ؟! لقد أضحى زكى سمكة ، إى والله .. هذا هو
الذيل ، وتلك هى الزعانف . إنه يستطيع أن يتنفس فى الماء بمتهى السهولة ،
ويستطيع أن يروح ويغدو كما يشاء .

حمدا لله ، لقد تحققت أمنيته التى طالما ذابت نفسه شوقا إليها ، لقد فارق
الوحوش الآدمية إلى غير رجعة ودخل فى عالم السمك .. أيتها الأسماك أبشرى ،
إن زكى ملك الأسماك سيثأر لك من ابن آدم .

وأخذ زكى القرموط — فقد وجد نفسه أشبه بالقراميط — يتجول فى عالمه
الجديد ، وطال به التجوال حتى أحس بالجوع دون أن يجد ما يسد به رمقه .

شئ عجب ! أليس لديهم فى هذا العالم ما يؤكل ؟ ولو لقمة بجينة ؟
وفجأة لاحت له فى الماء اللقمة التى يتلهف عليها .. واتجه إليها محركا زعانفه
وذيله فى عجلة حتى وصل إليها ، وفتح فمه فأطبق عليها .
وهنا كانت الكارثة .

يا له من حمار أحمق ! لقد أحس بشئ حاد يخترق فمه وينفذ إلى أذنه ، كيف
انزلق إلى الطعم بمثل هذه السهولة ؟
أيصطاده إنسان ولما يميز عليه فى الماء بضع دقائق ؟ أهكذا يقع غنيمة سهلة
باردة ؟

وحاول أن يخلص نفسه من السنارة ، ولكنه وجد نفسه ينجذب بسرعة إلى
أعلى ، وفى غمضة عين وجد نفسه خارج الماء .
وأخذ يضرب بذيله محاولا الفرار .. وأدار رأسه فوقعت عيناه على الصياد
الشرير والمجرم الأثيم .

من هذا ؟! إنها هى ، هى بعينها .. سونه ، من يصدق هذا ؟ كيف تكون
هى أول من يخرج من عالمه المحبوب ؟
ووجد الهواء يثقل عليه ، وتملكه ما يشبه الإغماء ، وأحس بالمرأة تقلبه بين

يديها ، ثم أبصر بها وهي تتناول مقصا وتأخذ في قص زعانفه وذيله ثم دفعته في نخائيشه وهو يستعطفها ويتوسل إليها أن ترحمه وتتركه لوجه الله ، ثم سمع صوت الوابور وطشطشة الزيت ، وأحس بشيء أشبه بالسيخ ينخسه في جنبه ، فحاول التخلص منه ولكنه استمر ينخسه ، وسمع صوتا يصيح به :

— ياللا بينا .

وفتح عينيه بثاقل فإذا بسيد يضربه بكوعه في جنبه ، وعاد يقول له ملحا :
— فوق بقى ، الغرزة شطبت .. ياللا بينا .

وتساءل زكى في صوت خافت :

— على فين ؟

— على زكيه العايقه ، تشوف الست سنيه .

وصاح زكى في فزع .

— سنيه ؟ أبدا ! أنا في عرضك ماروحشى ، كفايه اللي عملته في ، رجعنى

الدكان ابوس إيدك .

وعاد به سيد إلى الدكان ، ولم يتطلع زكى بعد ذلك إلى « سنيه » إلا وسرت في جسده قشعريرة خوف ، لقد كانت تلك هي مغامرته الأولى والأخيرة .

في البغالة

كان هذا الحديث أشبه بشريط مسجل يعاد كل صباح
بين أبي سريع وأمه .. لا يكاد يختلف اليوم عنه في أمس ولا
في غد .. يدور بينهما قبيل الفجر في المنذرة التي يقطنانها في
شارع ممتاز بالبغالة .

الساعة الرابعة صباحا . وبين حين وآخر تعلو أصوات الديكة من هنا
وهناك ، وأبو سريع يدعك عينيه ويتقلب على جنبه وهو يتمطى ويتشاءب ، ومن
أقصى الحجرة ينبعث صوت رفيع حاد كأنه صوت الضفادع ينادى نداء ملحا
متوصلا :

— أبو سريع .. أبو سريع !

ويجيب أبو سريع بمزيد من التمطى ومزيد من التثاؤب ، ويستمر الصوت في
إلحاحه :

— أبو سريع .. أبو سريع !

وهنا يزوم أبو سريع ، ولكن الصوت لا يعتبر الزومان إجابة كافية ، ويستمر
في توصله :

— قوم يا ابني . قوم يا خويا الله يهديك . أبو سريع أبو سريع .

وعلى حين غرة تنطلق من أبي سريع صيحة غضب بعد نفاد صبره ويجيب
ساخطا .

— ما قلنا طيب . خلاص صحينا . لمي لسانك واتكنمي بقي . والا عليك

عفريت اسمه أبو سريع !؟

— قلبى عليك .. يرفدوك وترجع ماتلاقيش اللضا .. وتبقى دابر من قهوه لقهوه زى المقاطيع !.

— اصطبحتى وقولى يا صبح .

كان هذا الحديث أشبه بشريط مسجل يعاد كل صباح بين أبى سريع وأمه .. لا يكاد يختلف اليوم عنه فى أمس ولا فى غد ، يدور بينهما قبيل الفجر فى المندرة التى يقطنانها فى شارع ممتاز بالبحالة .

وكان أبو سريع قد التحق حديثا بعمله الجديد .. كمساريا فى شركة الترام .. وقد أحست أمه عند عودته إليها لأول مرة بحلته الرسمية الصفراء ؛ بأنها قد بلغت أقصى أمانها .. وأنها لم يعد ينقصها غير شيء واحد حتى تموت مستريحة البال .. قريرة العين .. هو أن تفرح به ، وتلمه على بنت الحلال .

ولم تكن المرأة مبالغة فى فرحتها بأبى سريع بعد أن استقرت به الحال وأضحى موظفا يرتدى السترة والبنطلون والطربوش .. أو بمعنى آخر : أفنديا .. فقد كانت المسألة حقا تستحق الفرحة .. أولا لأنه كان أول أفندى فى العائلة الكريمة ، وثانيا لأنه — هو بالذات — كان آخر من يتصور إنسان أن تستقر به الحال فينتظم فى عمل أيا كان .

تلك كانت هداية من الله .. وكانت حسن الختام لحياة الشقاوة والبلطجة التى كان يرتع فيها أبو سريع .

من كان يصدق أن هذا المخلوق الهائم الشارد المطيور الذى لا يحمل نفسه عبء مسئولية ، أو يثقل عليها بتفكير فى مصير ، أو خوف من مستقبل ... المخلوق الذى لا يضيق بهم أو يسعى إلى رزق ، أو يجهد فى عمل .. المخلوق المغرق فى لهوه ومرحه وعبه .. من كان يصدق أنه يمكن أن ينطوى فى وظيفة ذات حدود وقيود ونظم ومواعيد !

كان أبو سريع .. من يومه — كما تقول أمه — شضلها مهايضا متلافا ..

لا يعتمد عليه في شيء ، ولا يركن إليه في عمل .. فما كان يطيق الذهاب إلى الكتاب إلا بعد علقه صباحى يتناولها على الريق .. من خبز رانة أبيه ، وكان كثير الفرار من الكتاب ، كثير المقالب في شيوخه .. وأمه ما زالت تذكر كيف حاول الشيخ « شحتوت » حبسه — وهو في السابعة من عمره — في زنزانة كتاب الاجتهاد فقفز من النافذة وهبط إلى الأرض .. لا لينجو بجلده .. بل ليتسلل إلى حجرة الشيخ « شحتوت » نفسه ويغلقها عليه ، وهو جالس يصلى ، ويتركه سجيناً في الغرفة حتى أطلق الفراش سراحه في اليوم التالى .

وتذكر كذلك كيف كان يحتفظ بقشر البطيخ ليأخذه معه إلى الكتاب قائلاً : إن القشر الأبيض ينفع في اليوم الأسود ، وأن له فيه منافع جمّة .. أهمها ضرب أفقية التلاميذ في أثناء الدرس ، وزحلقة « الشيخ بندق » عند دخوله الفصل أو خروجه منه !

وأخيراً هرب من الكتاب .. ومن كل كتاب آخر حاول أبوه أن يدخله فيه .. ولم يكن نصيبه في المدارس الابتدائية بأحسن من نصيبه في الكتاتيب . وانتهى الأمر بأبيه .. بعد أن فقد كل أمل في جعله ابن مدارس .. وفي أن يكون أباً لموظف متنور متعلم .. يغبط به الأقارب ويكيد به الحساد ، انتهى الأمر به بعد طول يأْس وقنوط إلى أن يحجزه في دكانه ويحاول الاستغناء به عن أحد صبياناه ، وأن يقنع بأن يورثه مهنته ويخلفه في عمله .

وهكذا بدأ أبو سريع يعمل كصبي لبنان في شارع ممتاز يقوم بتوزيع اللبن على زبائن حى البغالة في أقساط الصفيح صباحاً .. ويحمل الصينية الخشب المليئة بسلاطين الزبادى لبيعها مساءً ، وفيما بين هذا وذاك ، كان عليه أن يقوم بما يلزم من غسل الأقساط وجمع السلاطين وإشعال المنقد .. وتنظيف الدكان . كان هذا هو عمل أبى سريع ، أو على الأصح ما كان يجب أن يعمل كصبي لبنان .. صبي عاقل كبقية خلق الله من الصبية .

ولكن أباً سريع لم يكن كبقية خلق الله .. ولو كان خلق الله كلهم كأبى سريع

لما قامت للدنيا قائمة .. ولا انتظم فيها عمل .. لأن أبا سريع كما قلنا كان يحس دائما بأنه غير مسئول عن أى شيء .. وأنه يجب ألا يكون قط مسئولا .. فهو لا يفعل إلا ما يجب ويشتى .. وهو ما دام مبسوطا فعلى الدنيا السلام .. لقد كان قوله الماثور إذا ما سئل عن خطأ أو مخالفة « إنه مبسوط كده » .. لقد كان نموذجاً لإنسان ضارب الدنيا صرمة أو حائط في بطنه بطيخه صيفى أو كما تقول أمه :

« ما حدش واكله عجيين ! »

وعلى ذلك فمن الحق أن نزن أن أبا سريع — كصبي لبنان — يمكن أن يعمل ما يجب على صبي اللبان عمله .. من كل ما ذكرنا من واجبات . إذن .. فماذا كان يفعل أبو سريع .. !

لنرقبه في أول خروج له ، وقد حمل صينية الزبادى على رأسه وهو فرح مسرور لمجرد أنه يعمل شيئا جديدا وأخذ يطوف بالحوارى مناديا :
« يا قشطه يا زبادى » .

ثم يخطر على باله فجأة أن يذهب إلى شارع التلول حيث تعود أن يجتمع برفاقه وهم يلعبون كرة الشراب ليرى ماذا يفعلون .. وليرىهم أنه قد أضحى صاحب عمل ، وصاحب صينية .

ويهل على باب الحارة .. فيلمحه الصبية المنهمكون فى اللعب .. فيقفون اللعب ويصيحون به فى دهشة :

— إيه ده يا وله يا أبو سريع !

فيقول مفتخرا :

— لبن زبادى .. حدش له غرض !

ويقذف أحدهم بالكرة .. ويحس أبو سريع أن رجله تأكله على اللعب .. وتقرب الكرة منه .. فيشتد الإغراء وتضعف المقاومة . فيستعد لها ويرجع ساقه إلى الخلف ، ثم يسدد إليها ضربة قوية .. تقذف بها إلى أقصى الحارة ،
(بين أبو الريش ...)

وتقذف به طريقا على الأرض وسلاطين اللبن فوقه .
وينهض أبو سريع متحاملا على نفسه .. ويتزاحم عليه الرفاق يلحقون ما علق
به من الزبادى .. ثم يساعده في لم الأنقاض .. ويعود إلى أبيه حاملا بقايا
الزبادى ، وشقافة السلاطين .. ويخبره ببساطة أنه ترحلق على قشرة بطيخ .
ويختار أبوه فيما يفعله به ويثور ويقسم أن يرسله إلى الأحداث . فتهدئه أمه .
وتذكره بأن هذه هي المرة الأولى التى يخرج فيها .
ويخرج فى المرة الثانية ليتجه رأسا إلى شارع التلول وليضع الصينية على أحد
الشبايك وينهمك مع الصبية فى اللعب !
وترتفع الكرة .. لتستقر فى وسط الصينية .. وتقلب عاليها سافلها .. ويعود
أبو سريع ليخبر أباه أن السبب هذه المرة كان قشرة شمامة !
ويهيج أبوه ويثور .. ويقسم أنه لا بد أن يحطم رأسه ، وتدخل أمه قائلة
« الثالثة ثابتة » وأنه يجب أن يعطى الصبى فرصة أخيرة .
ويخرج أبو سريع فى المرة الثالثة .. ويبدو كأنه قد حقق رجاء أمه .. وأن
« الثالثة » حقا « ثابتة » . فلقد عاد فى المساء بالصينية فارغة .. بعد أن جبر كل
ما بها وأخبر أباه أن الزبائن سيدفعون الحساب آخر الشهر .
وهكذا ظل أبو سريع يخرج كل يوم بالمليان ويعود بالفارغ ، وأبوه مطمئن
وأمه راضية .. ولم يكن أبو سريع نفسه بأقل منهما رضا وهناء .. فقد كان كل
ما يفعله .. هو أن يذهب إلى شارع التلول فلا يضع الصينية على النافذة حتى لا
تهبط الكرة عليها فتتلف اللبن .. بل يجمع الرفاق ويوزع عليهم السلاطين ..
قيأتون على ما بها ، ثم يكومونها فى حفرة بالأرض ويغطونها بالصينية ..
وينهمكون فى اللعب .. وفى النهاية يأخذ أبو سريع السلاطين الفارغة ويعود إلى
البيت .
وانكشف الأمر فى نهاية الشهر .. وأقسم أبوه بالطلاق ثلاثا .. أن يطرده من
الدار .

وظلت أمه تبكى وتنوح قائلة : إن المحروقة الكورة هى السبب فى كل ما حدث .

ولم تطل غيبة أبو سريع عن الدار .. أكثر من يوم . فقد تدخل القدر وأقسم ثلاثاً أن يكون الأب هو المطرود . وعاد أبو سريع ليصبح رب الدار .. بعد أن استقر أبوه فى مقره الأخير .. باب الوزير .

وتوقعت الأم أن يهتدى أبو سريع .. ويكبر ويتولى أمر الدكان بعد أبيه . ولكن خاب أملها .. فقد استمر أبو سريع على حاله وكان أول ما فعله بعد موت أبيه هو أن ابتاع لنفسه جزمة فوت بول .. وفانلة مخططة وشراباً ملوناً .. وأنبأ أمه أنه قد أضحى كابتن « تيم الأسد المرعب » !.

وتولت الأم أمر الدكان لتطعم نفسها .. وابنها .. وتيم الأسد المرعب !! أجل .. لقد كانت المرأة مسئولة عن إطعام وأيواء أفراد « تيم الأسد المرعب » من الضائعين والشحاتين .. الذين تعودوا أكل اللبن الزبادى كل مساء .. عقب كل مباراة .

وانتقل ميدان اللعب من شارع التلول إلى أرض الطيبى بسيدى الطيبى ، وهى أرض متربة تغوص فيها قدم اللاعبين إلى مسافة تزيد على ربع متر داخل الأرض .. وكان أبو سريع وبقية أفراد التيم .. يقضون نصف عمرهم .. مدفونين فى هذه الأتربة .. والنصف الآخر فى مقهى « أبو الفضل » فى أول شارع السد .

· واشتهر أبو سريع .. « كابتن تيم الأسد المرعب » .. فقد كان التيم دائم الفوز ، لأنه لا يلاعب الأتيام الأخرى إلا فى أرض الطيبى وهى أرضه التى اعتادها والتى لا يستطيع أى تيم سواه أن يلعب فيها ، فقد كانت الأتربة تثور من الأرض وتغماًل الجو فيختفى كل شيء عن أعين اللاعبين ، ويختفون هم عن أنفسهم ، وتختفى الكرة عن أبصارهم ، فلا ترى إلا وقد استقرت — بقدره قادر — فى مرمى التيم المضاد .

وهكذا كان « تيم الأسد المرعب » لصاحبه أبو سريع ، دائم الفوز ، بعد أن أصبح اختصاصيا في اللعب وراء ستار من الغبار ، أو قل إنه أضحي لا يشق له — وسط الغبار — غبار .

وفوضت الأمر أمرها لله ، ولم تعد ترجو من ابنها أفضل مما هو عليه . وهيات نفسها لقبول الأمر الواقع ، بل لقد كانت تذهب من آن لآخر بناء على إلحاح ابنها ، لترى مباريات الغبار التي كان ابنها وأفراد التيم يشيرونها في أرض الطيبى . واستمرت الحال على هذا المتوال حتى كان ذات يوم — وبدون سابق إنذار ولا مقدمات — إذ أنبأها ابنها .. أنه سيتوظف .

وفغرت الأم فاهها من العجب ولم تصدق أذنيها بادئ الأمر .. واستعادته القول ، فأنبأها في لهجة حاسمة مؤكدة أنه سيتوظف في وظيفة محترمة ، كمسارى في شركة الترام .

وظنت المرأة أن ابنها يمزح فقد كان من البلاءه أن تتصور أن أبا سريع يمكن أن يصبح انسانا نظاميا .

أبو سريع . يصبح كمساريا ؟ . غير معقول ولا جائز .

أبو سريع ، يرتدى البدلة الصفراء والطربوش ، بدلا من الفانلة المخططة وحذاء الكرة !.. لا يمكن !

أبو سريع ، يحمل حقيبة ودفتر تذاكر ، ويجمع من الركاب نقودا ؟ أبدا ..؟ ومع ذلك .. فما كادت تمضى بضعة أيام .. حتى أقبل أبو سريع من باب الحارة ، وقد سبقه صوت الزمارة يعلن عن قدومه ، ثم بدا أمامها يتبختر في حلتها الصفراء !.

وانطلقت أول زغرودة من فم المرأة . وأقبلت عليه تقبله وتحتضنه ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وهي تحمد الله على أن هداه أخيرا .. وأن يحقق لها أمنيتها الأولى .. ودعت الله بحمارة أن يحقق لها الأمنية الثانية ، وأن تتم فرحتها بأبى سريع بزواجه بينت الحلال .

وتساءل الجيران في حيرة عن سر تلك المعجزة التي حلت بأبى سريع ، فجعلت من الضائع الصائع المهيأص المتلاف — في يوم وليلة — موظفا محترما ، وانسانا عاقلا مسئولا .

أجل إنها لا يمكن أن تكون أقل من معجزة تلك التي تجير صاحبنا على أن يقبل — بمحض اختياره — ترك أرض الطيبى وقهوة أبى الفضل ، إلى سلم الترام ومتاعبه وقيوده .

ولقد كان ما أصابه حقا معجزة ، لا من السماء بل من الأرض ، معجزة قد لفها الله في ملأية لف ، ورج منها الصدر وهز منها الردف .

كانت معجزة « بأويه » ، تشدق باللبانة وتطرع من وراء البرقع ، وقد استقرت العروسة الذهبية على أنفها الدقيق ، وبدت العيون وفي طرفها حور من نوع قاتل فتاك .

كانت المعجزة هي : نجف .

نجف ولا أحد غير نجف ، إنها السبب في كل ما حدث . أبصرها أبو سريع أول مرة ، وهو يجلس على المقهى في (ترام ٥) المتحرك ما بين المديح وغمره ، ثم أبصرها ثانيا مرة في (ترام ٥) أيضا ، وثالث ورابع وخامس مرة ، برضه في (ترام ٥) ، بل إنه لم يصبرها قط في غير (ترام ٥) ، إما ذاهبة إلى المديح ، وإما عائدة من المديح .

ومست « أبو سريع » من حبا جننة ، وأضحى صريع هواها وقتيل (ترام ٥) ، وزاد من جنونه ، أن « نجف » كانت تجيد ضروب الصد والإعراض . وأنها كانت تجلس في الحريم حتى تقطع عليه كل طريق للوصول إليها .

ومرت الأيام بأبى سريع وهو مضنى جفاه المرقد ، صب أرقه الهوى ، لا يأمل في وصول ، ولا ينعم بلقاء .

وأخيرا من الله عليه بالفرج عندما اقترح عليه صاحبه « حنفى » سائق الترام

أن يعمل معه في الشركة كمساريا ، وأفهمه أن الشركة سترحب به كلاعب كرة يمكن أن يفيد تيم الكرة بها ، وأنه يمكن أن يتوسط له لكي يعين في (خط ٥) ، وبذلك تتاح له فرصة لقاء « نجف » والحديث معها يوميا .

وهكذا حدثت المعجزة واشتغل أبو سريع كمساريا ، وبدأ ركاب (ترام ٥) يشاهدون في ترام أبو سريع مسرحا لأبدع ضروب الفكاهة والتسلية واشتهرت زمارة أبو سريع بأنها تقاسيم صبا ، فقد كان يجود فيها تجويدا رائعا ، وكان كثيرا ما يوقف الترام ليبدأ في تشنيف آذان الركاب بأغنية نجف صائحا : « آه يا نجف ، آه يا نجف ، آه يا نجف ، حلو يا نجف » أو « يا لفتك في الملايه حرمتي أهلي ، امتي تدوب الملاية وتمشى على البهلي » .

وكان كثيرا ما يوقف الترام أيضا ، ليجرى وراء بائع عرقسوس ، ليحمل منه كوبايل به ريق « نجف » أو يعدو إلى بائع الجزر ليتحفها بشرشين جزر ، أو حمل ملانة ، أو خص .

كل هذا و « نجف » مستمرة في صدها ممعنة في إعراضها ، وأبو سريع صابر راض ، حتى كان ذات يوم حلت الكارثة ونقل أبو سريع وصاحبه حنفى من (خط ٥) عقب وشاية من أحد المفتشين .

وخرج أبو سريع ذات صباح من داره حزينا ليتسلم مع حنفى إحدى عربات (خط ٧) المتحرك بين غمره وروض الفرج وبدأ الترام سيره من غمره في حزن واكتئاب حتى توقف أمام محطة « نجف » ونظرت « نجف » إلى مرة الترام وإلى أبي سريع وهزت رأسها في دهشة .

وقال أبو سريع :

— اتفضلي .

— لأ . أنا رايحه المديح .

— داترماي ٧ ، اللي بيودي على روض الفرج .

— عشان عيونك نوديه المديح ، ودين النبي ما هو رايح إلا المديح .

وأحبست « نجف » بدافع خفى يدفعها إلى أن تركب مع « أبو سريع » حتى ولو ذهب بها إلى جهنم .

إنها لم تعد تستغنى عن « أبو سريع » ، لا تدرى لم ؟ قد يكون الحب !
وركبت « نجف » ، وانطلقت زمارة « أبو سريع » ، تراقص وتتلوى وتأتاه .. وانطلق هو يصفق ويصيح بأنشودة : « آه يا نجف » ..

وفي مفترق الطرق صاح « أبو سريع » بحنفى قبل أن يطلق زمارته :

— على طول يا حنفى على المديح عشان خاطر عيون نجف .

واندفع إلى عامل التحويلة فحول الخط إلى المديح وانطلق الترام ٧ بركابه لأول مرة إلى المديح بدلا من روض الفرج .

وضج الركاب فأفهمهم أبو سريع أنه مبسوط كده ، واللى مش عاجبه ينزل .

وعاد أبو سريع إلى أمه في ذلك اليوم ، وهو يرقص عشرة من مدخل الحارة .
وطلب منها أن تبارك له ، لأنه سيتزوج ، فقد رضيت به « نجف » وأنبأته أنها تحبه .

وانطلقت الزغرودة الثانية من فم المرأة فقد حقق الله كل أمانيا ، وهتفت والدموع تترقق في عينيها :

— الحمد لله ربنا حقق الحاجتين اللي كانت نفسى فيهما .

— حاجتين ؟ .

— أيوه الوظيفة والجواز .

وأطرق أبو سريع برهة ، ثم أجاب في أسف :

— اسمعى يام ، ربنا خد واحده منهم .

— خد واحده ؟

— أيوه ، الوظيفة .. الشركة رفدتنى النهار ده علشان وديت ترمای ٧

المديح عشان خاطر نجف .

وضربت المرأة بيدها على صدرها صائحة في انزعاج ، ولكن انزعاجها على
رفت أبو سريع لم يطل ، فقد أصلح الزواج حاله وعلمه المسئولية فتولى أمر
دكانه ، وأضحى المعلم أبو سريع اللبان الشهير في البغالة والأربع عشرة مديرية .

فى حارة السيدة

وهكذا حواء تأخذ من الجميع ولكنها لا تهب إلا لمن
تحب .. حتى ولو كان زبالا فى خرابة .
ترى .. هل تختلف حواء حارة السيدة كثيرا عن حواء
الزمالك ، والمعادى ، وجاردن سيتى ؟

الساعة السابعة مساء .. والضجيج على أشده على باب حارة السيدة ، وقد
تزامت عربات الباعة أمام الحوانيت وتعالَت الأصوات واختلطت نداءات الباعة
بصيحات المارة .

وعلى ناصية الحارة دكان كتب على لافتته « على على على وولده على » ،
ورغم أن اللافتة لا تنم صراحة على كنه الحانوت ، إلا أن الواجهة الزجاجية تنبئ
عما خفى من أمر اللافتة ، وتكشف بوضوح عن نوع البضاعة التى يتجر فيها
صاحب الحانوت .

أول ما يلفت النظر من زجاج الواجهة : إنسان يتحرك بمنة ويسرة بطريقة
أوتوماتيكية سريعة منتظمة كأنه بندول الساعة .. وقد ينهمك فى العمل أو يكف
ن عنه ، وقد يندفع فى الحديث أو يلوذ بالصمت ، وقد يفعل كل شئ .. أو لا يفعل
شيئا أبدا ، ولكنه مع ذلك لا يكف عن الحركة ذات اليمين وذات اليسار .. حتى
ليبدو أن هذه الحركة هى الوضع الطبيعى له ، وأنها لا علاقة لها ألبتة بما يأتية من
أعمال ، فهى كحالة الثبات عند سواه من الآدميين .

فإذا ضربنا صفحا عن حركة صاحبنا البندولية .. وأخذنا فى فحصه هو ..

وجدنا فيه مخلوقا سمين الجسد .. هرمى الشكل ، متنفخ البطن ، أبيض البشرة .. مشدود الجلد لامعه ، شديد الشبه بالطفلة .. يرتدى جلبابا بلديا ويضع فوقه فوطه كتلك التى يرتديها الطباخون ، ويضع فوق رأسه طاقية شبكية بيضاء ، ويدس قدميه فى « بلغة » صفراء .

هذا عن الشكل ، أما عن الموضوع .. فتحن فى حيرة شديدة .. أى الرجلين هو ؟ أهو صاحب الحانوت على على على أم ولده على ؟
لنتبعه فى عمله برهة .. علنا نصل إلى الحقيقة .. فنعرف من يكون !.

الرجل ما زال فى اهتزازة الدائم ، وقد رصت على « البنك الرخامى » الذى يقف خلفه قطع صغيرة من المعجين فى حجم قبضة اليد ، وبجواره واجهة نحاسية لفرن بدت من فتحته بضع فطائر دست فيه ، ويمسك الرجل إحدى قطع المعجين ، فيضغطها بين يديه .. ثم يطرق على الرخامة ويتناولها بأصابعه ، وفى لمح البصر تجده قد نشرها فى الهواء كأنها منديل محللوى ، ثم يأخذ فى طي أطرافها وتطبيقها وهو يغمس أصابعه بين أونة وأخرى فى آنية مملأى بالسمن ويقطر منه فى جوف الفطيرة ثم يطوح بها إلى فوهة الفرن .

وهكذا يتضح لنا أن الرجل بلا أدنى شك فطاطرى ، ومع ذلك فقد بقى علينا أن نكشف اللغز ، ونحل العقدة ونعرف هل هذا الرجل هو نفسه صاحب المحل أم هو ولده على .

ويصبح أحد الصبية المتكاثمين على باب الحانوت :

— أربع فطاير بالسمن ، وخلي السكر لوحده !.

ويأخذ الصبى الفطاير ويغادر الحانوت دون أن يطالبه الرجل بالثمن .. لا هو ولا غيره .. ممن سبقوه .

وقد يثير الأمر دهشة الغريب عن الحانوت فيترأى له أن صاحبنا يبيع فطايره شكك أو يوزعها مجانا ، ولكنه لا يكاد يتبع أحد الزبائن حتى يجده قد توقف أمام عجوز نحيل الجسد أشعث اللحية ، قد استقر متربعا على كرسى من الخوص

وتناول في يمينه مبسم شيشة يكرقع بها بين آونة وأخرى وينفخ من فيه حلقات الدخان كأنه مدخنة فرن ، ويسعل وينخم ويصق ، ثم يمد يده إلى الزبون الواقف أمامه فيتناول منه ثمن الفطير .

ومن هذه العملية تستطيع أن تجزم أن هذا العجوز هو الكيس .. وأنه كذلك لا يمكن إلا أن يكون هو نفسه على على على .. ويؤكد لنا هذه الحقيقة صيحة تنطلق من منتصف الشارع كأنها الرعد .. لو حاولنا تفسيرها لما وجدنا فيها سوى « سلامو عليكم يا حاج على » .

ويرد « الحاج على » التحية بصوت متحشرج متقطع .. فيطلق صاحب التحية صيحة أخرى متسائلة تحتوى على « أوزن رطلين ؟ » .

ويجيب الحاج على باقتضاب :

— لأ ..

— دازى اللوز .. !

— قلت لأ ..

ولكن صاحبنا لا يئأس ، ويعاود الإلحاح بطريقة مباشرة .. فيضع كفه على صفحة وجهه ويغمض عينيه ويرفع عقيرته بما يشبه الغناء مناديا : « والنقا لوز يا سيوى العرب » .. ثم يضممت لحظة ويخفض صوته هابطا إلى قرار الجواب متمما نداء « البلح السيوى » ، ولا يصل النداء إلى « الحاج على » إذ يبدو منهمكا في عد قروش أعطاها له أحد الزبائن .. فيئأس منه صاحبنا ويلقى تحية أخرى أرق من الأولى وأنعم .

وتبهط التحية هذه المرة على « سنيه ورور » بائعة الفجل وقد تربعت على الرصيف بجوار « الحاج على » ، وراء قفص رصت عليه حزم الفجل ، وبجوارها سلة ممتلئة بالليمون .

وتجيب « سنية » تحية بائع البلح قائمة بصوت ممطوط ممدود :

— مسا الخير يا جمعه .. الوراور .

ولا يبدو في صيحتها تلك أى فاصل بين تحيتها لجمعة وندائها على الفجل
الوراور ، بل هى تشبكهما ببعض كأنما تخشى أن تضيع منها لحظة دون
أن تعلن عن بضاعتها .

ويدفع جمعة عربته تجاه الرصيف فيوقفها بجوار قفص سنية ، ويبدأ الدردشة
معهما .

وتلقت إلى الخانوت ، فإذا الرجل البندولى المتأرجح يمينا ويسارا .. الغارق
إلى كيعانه فى السمن البلدى ، والذي لم يعد لدينا شك بعد اكتشافنا « للحاج
على » أنه لابد أن يكون هو نفسه ولده على ، وقد انتهى من لف بضعة فطائر
وناوها إلى أحد الزبائن وصاح مبلغا الحاج على :
— أربع فطائر دو بل ، واثنين مفرد .

وفجأة وبدون سابق إنذار يلوح لنا أن حدثا خطيرا يوشك على الوقوع .. إذ
نصر « سى على » قد كف فجأة عن الاهتزاز وتوقفت حركته البندولية ، واحمر
وجهه وتجهم ، وتطايير الشرر من عينيه فنفذ خلال الواجهة الزجاجية ، وعبر
اللافتة التى نقشت عليها « عز من قنع .. وذلل من طمع » .. واستقر على
« جمعه » وقد اتكأ على عربة البلح السيوى ولف ساقا على ساق .. متخذاً وضعاً
من أبلغ أوضاع الغزل والبصيصة .

وتمر فترة صمت قصيرة يتطلع خلالها الزبائن إلى « سى على » دهشين مما حل
به ، ويثبت هو فى مكانه وقد تكأ كأت الأفكار متراحمة فى ذهنه .
ماذا يفعل !!؟

ينطلق من الخانوت فيضرب « جمعه » ضربة بالحساس (القضيب الحديدى
الذى يقلب به الحطب فى جوف الفرن) ترديه صريعا ؟!
لقد عاد مرة أخرى إلى مغازلة « سنية » .. رغم الإنذار النهائى الذى أعطاه له
عندما التقى به يتبعها فى الحارة .

ثم « سنية » نفسها ..؟ ألم يحذرهما مائة مرة ويأمرها أن تصده عنها ؟ ومع

ذلك فهي تبدو مقبلة عليه ، وهي ترد له الابتسامات وتجاوبه الضحكات .
والله ليقتلنها .. وليقتلنه .. وليقتلن أباه .. ثم ليقتلن نفسه .
أجل .. إن أباه هو المسئول الأول .. فقد طلب منه أن يزوجها له ، ولكنه
رفض منبأ إياه بأنها مش قد المقام ، وأن على بن الحاج على على الفطاطرى
الأصيل الحسيب النسيب ... لا يمكن أن يهوى إلى درجة الزواج من بائعة
فجمل !!

إن هذا ما تذرعه به أبوه !! ولقد كذب العجوز فيما تذرعه به .. إن المسألة
ليست مسألة حسب ولا نسب ، ولكنه رفض أن يزوجه بها لأنه يريد لها لنفسه ،
ولولا خوفه من « أم على » .. لما تردد لحظة في زواجها .

وإلا فما معنى حبه الفجائى للفجل ، وشرائه يوميا بقرشين أو ثلاثة قروش
فجلا يذهب به إلى « أم على » ويخبرها كذبا .. أن النبى عليه الصلاة والسلام قد
قال : « إن خير الأكل ما جاور الفجل » !

إن كل هذه الثمر والحركات من الحاج ما كانت لتخفى على الابن العاشق ..
فكم من مرة ضبطه متلبسا بالحملقة فى صدرها البارز ، وساقها الممتلئين ،
وردفها المكتنزين ، وهو كثيرا ما يطلب منها أن تناوله شيئا فلا تكاد تقترب منه
حتى يتحسس يديها ، ويربت على ظهرها .. مدعيا أنها « بنت غلبانة » تستحق
العطف ، ولا يدري « على » لم يخص أبوه « سنية » من دون بقية خلق الله الغلبة
بالتحسيس والطبقة .

وهكذا لم يعد يشك فى سوء نية أبيه ، وفى كذب حججه ، وبدأ يرسم
الخطط ويضع المشروعات التى تمكنه من أن يفوز بـ « سنية » رغم أنف أبيه ،
حتى ظهر فى الميدان خصم ثالث .. هو جمعه .

ولم يكن « سى على » فى بادىء الأمر ، ليرى فى خصمه الجديد أى نوع من
أنواع الخطورة .. بل لقد كان أى فيما بينه وبين نفسه أن يعترف به خصما ،
فما كان يراه ندا له وما كان ليتواضع حتى يقارن فطاطرى محترم مثله بنعم عليه كل

من حوله بلقب « سى » بجربوع متجول مثل جمعه . يقضى نهاره يطوى الشوارع والحوارى وراء عربة بلح .. أو عربة بطاطة أو جميز أو ترمس .. رافعا عقيرته الحميرية بـ « والوزنه بنكله يا غسل » .. أو « طلعت اجيبه ترمس لقيته لوز » .

أى والله .. إن « سى على » ما توقع من « جمعه » الكلب خطارا رغم ما كان يراه من إقباله على « سنه » ، ورغم ما كان يتحفها به من قراطيس بضاعته . ومع ذلك فقد بدأ الخطر يلوح أخيرا .. فقد اتضح له أن سنه من نوع نهم ، وأن إطعام الفم .. له تأثير عليها .. أى تأثير ، وأنها من النوع الذى يستطيع أن يصل الإنسان إلى قلبه عن طريق فمه ، وأن قراطيس جمعة الملائى بالبلح والجوافة كانت أكثر سحرا من نظراته المفعمة بالحب والوله .
ولذلك فقد وجب عليه أن يوقفه عند حده بأية وسيلة .

إن استعمال القوة مع مثل هذا الحيوان طريقة غير مجدية فهو بلاشك أقوى منه وسيرديه صريعا فى أى معركة بينهما .

وبدت على وجهه علامات الخيبة ، ولكنها لم تستمر سوى ثوان معدودات ، وسرعان ما حلت محلها فرحة ظاهرة .

ما الداعى إلى استعمال العنف ؟ لم لا يحاربه بنفس سلاحه ؟ لم لا ينفذ إلى قلبها من نفس الطريق .. طريق أطعم الفم يستحق القلب ؟ . إنه لاشك أقدر فى هذا الميدان وأمضى سلاحا وأكثر عتادا .

وهكذا استقر رأيه على أن يستعمل مع « جمعه » سلاح الفطير ، وأن يغزو قلب حبيبة القلب بفطيرة متقنة الصنع ، لم يسمع عن مثلها فى عالم الفطاطرية . ونظر إلى « جمعه » وهو يمد يده بقراطيس البلح السيوى ، ثم نظر إلى « الحاج على » وهز رأسه وتمتم فى سخرية « خير الأكل ما جاور الفجل » .. ثم صمت برهة وأردف وهو يضغط على أسنانه « الصبر طيب » ، وعاود اهتزازة مرة ثانية .

وانصرف « جمعه » بعربته ، وبعد برهة نهض الحاج على متباطئا واتجه إلى « سنيه » .. ثم عاد إلى الحانوت وهو يحمل ما يقرب من عشر حزم فجعل يدفع بها إلى ابنه طالبا منه أن يحملها إلى البيت بعد أن يغلق الحانوت ، وأخبره أنه سينصرف الآن لأن لديه بضعة أعمال لابد من قضائها قبل أن يعود إلى الدار .

وانصرف « الحاج على » ، ولم تكد تمضى على انصرافه بضع دقائق حتى كان « سى على » قد صرف الزبائن وأغلق الحانوت ثم سار إلى « سنيه » وقد حمل في يده لفافة كبيرة دسها في حجرها وهمس في أذنها بوضع كلمات فأجابته « حاضر » وبدأ يتحرك مترنخ الأعطاف وقد ملأه شعور بالانتصار .

لقد كسبت فطيرته المعركة .. إن « سنيه » ستلقاه بعد بضع لحظات .. عند الخرابه المجاورة للأبوة .

لهيب لها « جمعه » كل بلحه ، وليشتر أبوه كل ما لديها من فجل .. فلن يضيره كل ذاك .

لقد كسب الجولة الأخيرة .

ووصل « سى على » إلى الخرابه ، وسار يتحسس طريقه في الظلمة حتى بلغ حجرا بجوار سورها فاتخذ مجلسه عليه ، ومضت لحظة قبل أن يتغلب على اضطرابه ويتمالك أنفاسه ويعود عينيه ظلمة المكان .. ثم أخذ يدور ببصره حوله ، وينصت جيدا .

كانت الخرابه ساكنة موحشة ، لا يسمع فيها غير مواء القطط المتجولة حول أكوام القمامات ، ولا يبدو منها غير بريق أعينها عن بعد عندما تنعكس عليه أضواء مصابيح الحارة .

وكانت الخرابه تحد من ناحية بسور مهدم يطل على الحارة ومن النواحي الثلاث الأخرى بالجدر الخلفية للدور المحيطة بها ، وقد قامت في الظلمة كأنها أشباح توشك أن تنقض وبدت من خلال نوافذها المطلة على المناور أضواء خافتة شاحبة .

وأحس « على » رهبة شديدة وود لو استطاع الفرار فقد كانت المغامرة شديدة الوطأة على أعصابه ، وكانت طبيعته اللينة الهادئة أجبن من أن تحتل مثل هذه الخلوة الموحشة .

ولكنه لم يغادر مجلسه ، واستمر يجثم فوق الحجر ، وحاول أن يسرى عن نفسه مشجعا إياها بما ينتظرها من لقاء ممتع ، مستعيدا في ذهنه منظر « سنية » بسيقانها المتلقة ، وأفخاذها البضة ، وصدرها المكتنز ، والمنديل أبو أويه معصوب على أحد حاجبيها .

كل هذا سيضحى بين يديه بعد لحظات .

ولكن ماذا يستطيع أن يفعل بها ؟

ألا يخشى أن يضبطه أحد في الخرابة وهو متلبس معها ؟
لا .. لا .

إن الطريق ساكن ، ولا أحد يفكر في أن يطرق الخرابة في هذه الساعة من الليل ، اللهم إلا مخلوقا واحدا ، وهو محروس الزبال .. الذى يأوى في عشته المبنية من الصفائح في ركن الخرابة .

ولكن محروس ليس هو المخلوق الوحيد الذى يخشى منه أحد فهو والققط والكلاب سواء بسواء .

أجل .. إنه حيوان هائم ضال .. معتوه أبله . لا يكاد يحس ولا يبصر ولا يسمع ولا يفهم ، ومن الغباء أن يخشى منه على نفسه .

وهكذا اطمأن « سى على » ، وهدأت نفسه بعض الشيء وبدأ يتصور ماذا يمكن أن يفعله بـ « سنية » في هذه الخلوة .

يحتضنها ويقبلها ؟

لا .. لا .. ليس هكذا مرة واحدة .

يجب أن يبدأ في مناجاتها وتدليلها ، وشرح حبه ولوعته .

أتراها ستفهم ؟

لتفهم أو لا تفهم .. إنه يحس برغبة جارفة في أن يفرغ ما بنفسه .

وبعد ذلك .. ماذا يفعل ؟

يبدأ بالتحسيس عليها .

أجل ! التحسيس .. فلشد ما يحس برغبة جارفة في مس ذراعها

وصدرها و .. و ..

وشيثا آخر يتوق إلى لمسه ، وهو باطن فخذها الذى يلوح له دائما من وراء
الزجاج كلما حركت ساقتها يمنة أو يسرة .

وبعد ١١؟ ماذا يفعل بعد ذلك ؟

يبدأ في تقيلها واحتضانها .

ولكن أتراها تسلم له ؟ ولم لا !! ألم يعطها فطيرة .. لم يصنع مثلها لأحد في
حياته ؟

وبعد التقيل والأحضان ١؟

ينام معها ؟ ولكن أين ؟

إن أرض الخرابة ملأى بالحجارة والزجاج المكسور ، ومن الجنون أن يحاول
الرقود على أرضها .

فأين سينامان إذا ؟

ليته أخضر معه سجادة أو حصيرة .

وأخذ يقدح زناد فكره .. عله يجد مكانا يرقدان فيه سويا .

وأخيرا ، وجدته .

إنه المأوى الوحيد الذى يستطيع استعماله .

حقيقة إنه لا بد وأن يكون بالغاً في القذارة ، ولكن لاشك أن به فراشا ممهدا ،
متواريا عن الأعين .

أجل .. ليس أمامه سوى عشة محروس .

إن الرجل يبدو أنه لم يأو بعد إلى عشته ، وحتى لو كان هناك فإنه يستطيع أن

يغمزه بنصف فرنك ليخلى له العشة ، ويقف له حارسا على باب الخرابية .

الحمد لله .. فرجت !

إن عليه أن يسحب « سنية » عندما تحضر ويقودها إلى عشة محروس وهناك يستطيع أن يفعل ما يشاء .

وما دامت العشة تسترهما ، فلم لا ينتزع عنها ملابسها ؟ »

أجل .. لم لا يجلسها أمامه عارية ملط ؟!

وأحسن بنشوة شديدة ، وبدأ يتصورها أمامه عارية وأخذ يفحص جسدها قطعة قطعة .

صدرها كيف سيصره ؟ وبطنها ، وظهرها ، وفخذها ، حقا إنها ستكون ليلة حمراء ، ما كان يحلم بها قط .

ترى هل يخلع ملابسها هو أيضا ؟ لا . إنه ينجل فما بدا من قبل عاريا أمام أحد .

ولكن هل هناك مصباح في العشة ، أو على الأقل شمعة ليصير عليها محاسن « سنية » ؟

هل يفكر حيوان مثل محروس في أن يضع في عشته نورا ! لا يظن !!

على أية حال يجب أن ينهض للأطمئنان ولتجهيز العشة .

ولكن هبها حضرت الآن ولم تجده ؟ لا .. لا .. يجب أن يبقى في موضعه .. لا يفارقه حتى تحضر .

إنها لا بد آتية في خلال دقائق .. فما يظنها تتأخر أكثر من ذلك .

إنه يسمع وقع أقدام تطرق أرض الحارة .

إنها هي .

أجل .. أجل .. لا بد أنها قد أتت .. إنه يستطيع أن يميز وقع أقدامها .

وبعد برهة خيل إليه أنه يلمح في الظلام شبحا يتحرك فنهض من مجلسه وأخذ يقترب منه رويدا رويدا ، وقد تملكه اضطراب شديد .

ووصل إلى الشيخ ، ومد رقبته وحملق فيه جيذا ، ثم ندت منه صرخة
دهش ... لقد كان أباه !!
ولم يكن لدى الاثنين فرصة لعتاب ، أو نقاش ، أو عراك ، فقد أبصر شبعا
آخر يقترب .

إنه بلاشك سنية !!
ويح الفتاة الخبيثة .. لقد غررت بكليهما ، وأعطتهما موعدا واحدا ،
ومنحتهما لقاء مشتركا .. يا للخرج .
ووصل الشيخ .. فندت عن الرجلين وعن الشيخ صرخة عجب مضاعفة .
لقد كان الشيخ هو جمعه !!
ولم ينبس الثلاثة ببنت شفة ..
وغادر كل منهم الخرابة حتى بلا خفى حنين .

ولم يكن الثلاثة آخر من شاهدتهم الخرابة تلك الليلة . إذ لم يكذب يخلو
مسترحها منهم حتى بدت « سنية » بعد أن وثقت من ذهابهم .
وفي ركن من أركان الخرابة جلست « سنية » بجوار « محروس » الزبال ،
رب الخرابة وساكنها ، وسلمت له الفطيرة ، والبلح ، وثمر الفجل ، ثم ارتعت في
أحضانها .
وهكذا حواء ، تأخذ من الجميع ، ولكنها لا تهب إلا لمن تحب ، حتى ولو
كان زبالا في خرابة .
ترى ، هل تختلف حواء « حارة السيدة » كثيرا عن حواء الزمالك ،
والمعادي ، وجاردن سيتي !!؟

فى زىن العابدين

ما يكاد ينتهى من تأدية الواجب المقدس حتى يبدأ فى
جس عضلاته ومراقبتها فى المرأة المشروخة التى نقلها ضمن
العفش الذى أحضره من البلد لتأثيث الحجره التى
استأجرها فى زىن العابدين منذ أن حضر إلى القاهرة
للدراسته الثانويه .

دكش .. ومشكال هما بطلا القصة .. يتقاسمان البطولة فيها ، بالعدل
والقسطاس ، ولو أخذنا كلا منهما على حدة ، لوجدنا منه مخلوقا عاديا
لا نستطيع أن نخلق منه قصة أو نصنع حدوده ولكنهما على بعضهما يكونان مزيجا
طريفا ، ويركبان مخلوطا يمكن أن يصنع منه عشرات القصص .
هما صديقان حيمان لا يكاد يفترق أحدهما عن الآخر لحظة ، يبدوان فى
المدرسة كأنهما أخوان ، لا من حيث الشبه ، بل من حيث الوفاء والحب
والإخلاص .

أقول « لا من حيث الشبه » بلهجة جازمة أكيدة فليس هناك أدنى شبه
بينهما ، لا شكلا ولا موضوعا ، فهما مخلوقان متناقضان كل التناقض ، متباينان
كل التباين ، ومع ذلك فقد كان بينهما من الانسجام والتلازم والصداقه
ما جعلهما مضرب الأمثال ، وما جعل اسم أحدهما لا ينطق إلا مقرونا بالآخر ،
كلوريل وهاردى ، أو مشكاح وريمه .

وكان أول ظهورهما على مسرح الحوادث والشهرة ، كطالين فى سنة

ثالثة أول بمدرسة وادى النيل فى ميدان السيدة وأغلب الظن أن اسميهما الأصليين لم يكونا دكش ومشكال بل كانا اسمين عاديين مما يطلق على بقية خلق الله من التلاميذ مثل « محمد على أحمد » أو « إبراهيم زكى » . أو أى شىء من هذا القليل . ولكن هذه الأسماء أهملت ونسيت وانقرضت على مر الأيام ، وحل محلها هذان الاسمان اللذان يمثلانها أصدق تمثيل معنى ومبنى .

ويبدو لى أن من الخير ، قبل البداية فى القصة أن أبدأ بوصف كل منهما بدقة ، وأن أعرضهما عرضاً أميناً مفصلاً ، بل إنه ليخيل لى أن مجرد عرضهما كما هما ، قد يغينى عن القصة نفسها ويوفر على مشقة الحبك والتأليف .

لنبداً بـ « دكش » بدال مضمومة وكاف ساكنة ؛ فنجدته تماماً كما توحى إلينا الكلمة جسد ضخيم وعنق غليظ ووجه مكلبظ غليظ الشفتين ، أفلج الأسنان ، عريض الأنف ، كثيف الحواجب ، ثخين الجلد ، بادى المسام ، أشعث الشعر ، كبير الرأس فارغه .

أجل ؛ لم يكن هناك شك فى أنه فارغ الرأس ، خاوى الذهن ؛ أو لو فرض أن هناك شيئاً فى رأسه ، فقد كان شيئاً عاطلاً متبلداً ، علاه الصداً أو أصابه العطب ، ولم يعد هناك أمل فى أن يعاود العمل والتحرك .

وهكذا كان دكش ، بسطة فى الجسد ، وقلة فى الذهن ، بقدر ما أفرطت الطبيعة فى خلق بدنه ، وبخلت عليه فى تكوين عقله .

على أن هذا لم يضره فى شىء بل إنه لم يحس قط بأن فى الحياة ما يستدعى تحريك الذهن ، أو يوجب التفكير ، ولم يحاول مرة واحدة أن يرهق رأسه فى تحليل أمر ، بل كان يأخذ كل الأمور على علاتها ، بلا بحث ولا فحص ، لا يسأل عن سبب ، ولا يستقصى عن علة ، ولا يستبقي نتيجة ، ولا يحل لغزاً أو يفك عقدة ، بل يمر بالحوادث ، وهو مجرد مشاهد ، مخمض الذهن ، عاطل التفكير .

وهكذا خلت حياته من كل غاية ، ولم تعد له فيها أية رغبة ، إلا رغبة واحدة

هى تنمية ذلك الشيء الذى أغدقته الطبيعة عليه والاستزادة فى تضخيمه وتقويته . لقد أحس أن موهبته فى جسده ؛ فصمم على أن ينمى هذه الموهبة ! كان مؤنسه فى الحياة — غير مشكال — دمبرز ، وجلة حديد ، يقضى الساعات الطوال ، مختليا بهما ، يتبادلهما الواحد بعد الآخر ، ممعنا فى تحريكهما إلى مختلف الاتجاهات ، مئات المرات ، وهو مقطب الوجه عابسه ، كأنما هو مكلف تأدية واجب يتوقف عليه مصير البشر . فلا يكاد ينتهى من تأدية الواجب المقدس حتى يبدأ فى جس عضلاته ، ومراقبتها فى المرأة المشروخة التى نقلها ضمن العفش الذى أحضره من البلد لتأثيث الحجرة التى استأجرها فى « زين العابدين » منذ انتقاله إلى القاهرة للدراسة الثانوية .

ويعر الوقت بصاحبنا وهو يتمتع بحس عضلاته واختبار المجانس والترايس ، وقياس الأفانير وتلعب الأذرع !

ولم تكن حياة « الدكش » لتزيد عن هذا ، نوم وأكل ، ولعب حديد ، وجس عضلات ، وما كانت له بغية قط أكثر من هذا ، بل ما حاول أن يفكر أن فى الحياة شيئا سوى هذا ! وكان قريرا راضيا مستريحا يضحك لأنفه نكتة ولأبسط سب ؛ كان — بالاختصار — جسدا بلا ذهن !

أما مشكال ، فقد كان على النقيض ذهنا بلا جسد ، أو جسدا نحيلا ضئيلا كعدمه .

وكانت تسميته « مشكال » أعرق كثيرا من تسمية « دكش » فقد كان نعتا خلعه عليه أبوه منذ نعومة أظفاره بعد أن أثبت جدارة فى جر الشكل وفى خلق المشاكل .

كان نبيا ، ما فى ذلك شك ؛ ولكن نباهته لم تتجه إلى خير قط ؛ فما حاول أن يستعمل ذكاءه فى صالح له أو لغيره وكان مثلا لإنسان حاضر الذهن ، ولكن فى رد النكتة ، وفى سب الناس والضحك عليهم ومنهم .

كان من يومه إنسانا لا ينجعل ، يلقي بالنكتة ولو على نفسه ، أو على أبيه

وأمه ، يلقي بها حتى ولو عرف أنها ستؤدى به إلى التهلكة ، يلقي بها ورزقه — كما يقول — على الله .

ولا يذكر أبوه أنه استراح يوما من مشاكله ، ولا يذكر أنه عاد إلى الدار يوما غير مكسور ولا مبطوح ؛ فإذا عاد سليما ، فلا بد أن يكون قد خلف وراءه مبطوحا أو مكسورا .

لقد بدأ جلائل أعماله الشيطانية وهو ما يزال يحبو على أربع ، عندما سكب — بقصد أو بغير قصد ، الله أعلم — زجاجة الخبز في عمامة أبيه ، وانتهى أبوه من ارتداء ملابسه ثم خطف العمامة ووضعها فوق رأسه ليغرق في طوفان من الخبز ، ويظل طول يومه يدعك وجهه حتى سلخ جلده .

ولم يكد ، يشد حيله ، ويقف على ساقيه ، حتى أصابته هواية قذف الحاجات من الشباك على رؤوس المارة ليصيب عصفورين بحجر . فيفقد أهله ما خف وزنه وغلائمه ، وفي نفس الوقت ، يبطح بها رؤوس المارة ، لقد كان آية في الذكاء .. الذكاء الشيطاني .

ثم بدأ بعد ذلك في إطلاق سراح حيوانات الدار .. فخرج ذات يوم ممتطيا صهوة ديك رومى — انهمكت أمه في تسميته أربعة أشهر ، لأجل ذبحه في عاشوراء — وظل يبتز به في الحوارى ، وفي النهاية عاد من غيره .

وتوالى حوادثه بعد ذلك مع ما تبقى من الحاشية . فوضع مائة كتكوت في قدرة ، فماتت خنقا ، ثم قذف أوزة من فوق السطوح فدق عنقها . واستمرت مغامراته مع الدواجن حتى خلا منها السطح .

أما حوادث التوهان فحدث عنها ولا حرج . فله في كل أسبوع يوم يتسلمه أبوه من قسم السيدة بعد أن تحفى قدماءه في البحث عنه ، وبعد أن تبكيه أمه من كل عين حقان .

وشغف في إحدى فترات طفولته بإحضار وابور الحريقة وعربات الإسعاف في حيهم بلا أدنى سبب . فقد كان إذا لم يجد شيئا يتسلى به ينطلق في الحارة صارخا

مولولا معلنا بأعلى صوته أن حريقا شب في وابلور الطحين .. أو في العريخانة ، أو أن سقف بيت « الحاج على » سقط ، أو أن « أم أحمد » وقعت من فوق السطوح ، وينطلق معه السذج من أهل الحى في الصياح والصراخ حتى يتطوع عاقل من بينهم لطلب نجدة المطافئ أو الإسعاف وبعدها يختفى مشكال فلا تقع عليه عين ! .

أبعد كل هذا لا يسمى مشكالا ؟

ولقد بدأت عبقريته تتجلى عندما دخل مدرسة وادى النيل ، وأضحى طالبَ ثانوى ، وخاصة عندما التقى بـ « دكش » وبدأت أواصر الصداقة تتوثق بينهما .

كان مشكال دائم التورط في المعارك ، لا تفتأ شقاوته تلقى به بين آن وآخر في الخناقات ، ورغم أنه كان كثيرا ما يستطيع التغلب على خصومه بالتهديد والغلبة فقد كان من مزاياه أنه أكبر غلباوى عرفه شارع زين العابدين ومدرسة وادى النيل — إلا أنه في بعض الأحيان تخذله الغلبة ، ولا تخدع خصومه .. فينتهى به الأمر إلى الدخول فعلا في معركة .. فتكون النتيجة وبالا عليه .

وعلى هذا فقد وجد « مشكال » في « دكش » أكبر عون له ، عون قوى مطواع في جسده سطوة ، وفي ذهنه كلال . يستطيع أن يستعين به إذا ما أزعجت الآزفة . ولم يفد في رد غائلة الخصوم ذكاء ولا نبوغ ، وعندما تضحى الغلبة للقوة عندئذ يصبح استعمال « الدكش » مستحبا ومفيدا .

كان « دكش » بالنسبة لـ « مشكال » كأنه شومة ، تطيح برأس الخصوم دون أن تسأل عن السبب .

ومتى كان « دكش » يسأل عن السبب ، أى سبب لأى شيء ؟

كان يكفى أن يذهب مشكال ليقول لدكش ببساطة :

— دكش .

— فيه إيه ؟ .

— النهارده حانضرب تالته رابع .

كان يكفى أن يدور بينهما هذا الحديث ، حتى ينتهى اليوم بضرب تالته رابع — أو على التحديد فتوات تالته رابع — علقه تظلل المدرسة تتحدث بها طول العام .

لم يكن « دكش » يناقش « مشكالا » قط ، ولا كان يسأله لم يريد ضرب تالته رابع بالذات وماذا فعلوا به ، وماذا يريد منهم ، وما فائدته هو ؟ . لم يكن يخطر بباله قط أن يسأل عن هذا . فقد كان فى ذلك إجهاد لذهنه وإرهاق لتفكيره . لقد كان أسهل عليه جدا ، أن يذهب لضرب تالته رابع .. ثم يرفث بعد ذلك أسبوعا ، من أن يرهق ذهنه فى البحث عن الإجابة عن كل هذه الأسئلة .

تلك كانت الفائدة التى يجنبها مشكال من دكش .

ترى ماذا كانت فائدة دكش من مشكال ؟ .

كان له فيه فوائد جمة ، أولها تلك الخناقات التى كان يسوقها إليه ، جاهزة ، ناضجة ، دون أن يتعب فى خلقها ، أو تحضيرها ، بل يندب فيها ، ليجرب فيها قوته ويمرن عضلاته .

كان دكش قويا ، وكان يحب الخناق ، ولكنه كان أجهل وأكسل من أن يثيره .. لقد كان أعجز من أن يخلق عداوة أو يتسبب فى معركة ، فكان يسره أن مشكالا يقدم هذا إليه بلا تعب ولا جهد .

أما الفائدة الثانية ، فسلامته من لسان مشكال ، واتقاؤه لقله أدبه وسفالته ، وتشجيعه ، وضمائه لاحترامه بين الزملاء ، فلم يكن هناك أقدر من مشكال على إضاعة المركز والتهزئ .

أما الفائدة الثالثة ، فالضحك والتسلية التى كان يجنبها من وراء مشكال ؛ فقد كان مشكال ابن نكتة ، وكان دكش من ذوى الفشش العائمة الذين يضحكون لأقل سبب .

وهكذا توطدت الصداقة بين الطرفين ، واستمر مشكال يخلق المشاكل ،
ودكش يتلقى مصائبها .

حدث أن تراءى لمشكال أن يعيث بمدرس العربية ، فربط جرسا صغيرا في
فتلة زر الطربوش من الداخل بحيث أضحى الجرس مختلفا داخل الطربوش ،
وبحيث كانت أقل هزة من رأس مشكال كافية لرن الجرس .

وبدأ الشيخ عجة (كما كانوا يطلقون عليه بلا أى سبب) شرحه للحال
والبدل ، وبدأ مشكال يهز رأسه إعجابا بشرح الشيخ .. ويلتفت الشيخ مخنقا إلى
التلاميذ ، ويصيح مهددا :

— انت يا واد انت يالى بترن الجرس .. اسكت أحسن لك .

ويهز مشكال رأسه متأسفا على سفالة التلاميذ الذين يحاولون إضاعة الدرس
وحرمانه من الفائدة التى سيجنيها من شرح الشيخ عجة ، وفى كل هزة أسف رنة
جرس .

ويصيح الشيخ عجة :

— يا واد اسكت أحسن لك .

ويستمر مشكال فى هزة رأسه أسفا على عناد التلاميذ .

وينفجر الشيخ عجة :

— انت يا واد يا مشكال ، قوم أقف ، مفيش حد يعمل أمور السفالة
والشيطنة دى غيرك !.

ويتفعل مشكال ويقف غاضبا ثم يفرد يديه أمامه حتى يرى الشيخ عجة أنهما
فارغان وأنه ليس بهما جرس ، ويقول الشيخ عجة فى لهجة المعتذر :

— مش انت اللى بترن الجرس !

ولا يجيب مشكال بلسانه بل إنه يهز رأسه بشدة نافيا التهمة ، فينطلق رنين
الجرس .

ويدهش الشيخ عجة ، ويلتفت بين التلاميذ باحثا ، ويقع بصره على دكش

وهو يتسم في بلاهة فيندفع فيه صارخا :

— مافيش غيرك انت يا حيوان يا حلوف ، اطلع بره أنا لازم اوريك .
ويخرج دكش ببساطة وفي سكون ، دون أن يناقش ، ودون أن يسأله عن
السبب ، ليس هناك أى داع للتعب ، إن الخروج أكثر راحة .
واستمرت العلاقة بينهما .. يحصد الدكش ما يزرع مشكال ، حتى حل عام
دراسى جديد والتقى الاثنان في المندرة التى يقطن فيها دكش ، قبل الذهاب إلى
المدرسة .

ووقف دكش يقوم بتمرينات الجلة التى تعود أن يقوم بها ، وهتف به مشكال
فجأة وهو منهمك في التمرين :

— وله يا دكش .. انت دفعت المصاريف ؟
— لسه .

— معاك كام ؟

— معايا عشره جنيه جايهم من البلد .

— كويسين ، وأنا معايا خمسة يبقوا خمستاشر .

— وجمعتهم ليه ؟

— قلت لى ليه ، ادينى عقلك كويس ، حاكم انت غبى ما بتفهمش .. من
أول مرة .

— قول .

— انت عجباك المدرسة ؟

— أبدا .

— يعنى مهم أوى انك تروح وتتعلم ؟

— أبدا . أبدا .

— خلاص .. فرجت .

— يعنى إيه ؟

— يعنى مش حانروح المدرسة .

— أمال حانعمل إيه ؟

— حانفتح قهوة .

— قهوة ؟. احنا نفتح قهوة ؟

— صعب ؟. فيها إيه دى . المعلم دقدق صاحب القهوة اللي ع ناصية درب

البهلوان بيفلس وعاوز بيع قهوته ، نديله الخمستاشر جنيه ، ونشتري منه

القهوة ، مش احسن من المدرسة ؟

— ودى يلزمها إيه ؟

— ولا حاجه أبدا . إيدك على العشرة جنيه ، وخلى الباقي على الله وعلى .

ولم يمض اليوم حتى كانا قد ابتاعا قهوة دقدق ورفعنا اللافتة القديمة ووضعنا

مكانها لافتة جديدة كتب عليها « قهوة الأبطال لصاحبها دكش ومشكال » .

ومرت الأيام وقد طلقا الدراسة والمدرسة ، واتخذنا مكانهما فى القهوة :

مشكال على الكيس ، ودكش يطوف بالزبائن .

واستمر مشكال يخرج من البيت صباحا على أنه ذاهب للمدرسة ثم يقضى

طيلة يومه فى القهوة ويعود آخر النهار إلى البيت حتى علم أبوه فحلت الكارثة .

وضرب مشكال ضربا مبرحا وهدده أبوه بالطرد من البيت إن لم يرتدع

ويعود إلى المدرسة .

وهكذا عاد مشكال وحده إلى المدرسة ، وكانت هذه المرة مدرسة

الإسماعيلية حيث خجل أن يعود إلى وادى النيل تلميذا حقيرا .. بعد أن عرف

الجميع أنه قد أصبح صاحب مقهى على سن ورمح .

وبقى دكش فى القهوة وحيدا . واستمر مشكال فى مشاكله بالمدرسة دون أن

يتحمل أحد عنه العبء ، حتى كان ذات يوم طرده ناظر المدرسة ، وأنباء بألا

يعود إلا ومعه ولى أمره .

وسقط فى يد مشكال .. فقد كان من العنبر عليه أن ينبئ أباه بأنه قد أثار

مشاكل جديدة .. وأنهم لن يقبلوه إلا إذا ذهب معه .

وفكر مشكال برهة .. ثم خطر بباله فكرة .. وجد فيها خير حل لمشكلته .
إن دكش هو الذى يستطيع إنقاذه .. كما تعود إنقاذه دائما .. وذهب مشكال
إلى دكش فى القهوة فى زين العابدين .. ورحب به دكش أيما ترحيب .. وصمت
مشكال برهة ، ثم قال :

— دكش ..

— فيه إيه .. ؟

— عايزك تعمل ولى أمرى .

واستعصى على دكش فهم المسألة ، وبدا كأنه يريد أن يسأل عن السبب ..
ولكنه .. لم يجد مبررا لإجهاذ ذهنه فى التفكير أو السؤال .. ونهض لتسوه
مصطحبا مشكال .

وذهب مشكال إلى المدرسة وفى صحبته دكش .. وكان مشكال يحس أن
المسألة فرجت .. فليس على دكش إلا أن يستمع لشكوى الناظر ، ثم ينصرف
بسلام .

ودلف من باب المدرسة ، بعد أن أنبأ مشكال البواب بأن خاله يريد الدخول
إلى البية الناظر .

ودخل مشكال ودكش حجرة الناظر ، وقد بدا على مشكال النذل
والمسكنة .. وسار وراء دكش الطويل الجسد العريض الاكتاف المتنفخ
الأوداج .

وسلم دكش على الناظر وألقى عليه الناظر نظرة فاحصة متشككة وسأله :

— حضرتك ولى أمر الطالب ده ؟

— أيوه .. أنا خاله ..

وفكر الناظر برهة ، ثم هز رأسه فى أسف وقال :

— الولد ده سافل ومش مترنى ...

ولم يجب دكش أو لم يعرف كيف يجيب ، ولم يرد أن يتعب نفسه فى التفكير
والإجابة .

واستمر الناظر في قوله :

— أنا مش ممكن اقبله إلا إذا رفعتة علقه بنفسك دلوقت علشان يترى ،
وعلشان يحرم .

وأحس مشكال بقشعريرة تسرى في جسده ، ونظر إلى دكش نظيرة
استعطاف .

وتهد دكش تهيدة راحة فقد أحس كأنه كان يجتاز امتحانا عسيرا .. وأنه قد
وجد في الامتحان السؤال الذى يستطيع الإجابة عليه .

الحمد لله .. إن اليه الناظر لم يطلب منه أمرا عسيرا .. الحمد لله إنه لم يطلب
منه أمرا يستدعى التفكير .

إن كل ما يطلب منه .. هو ضرب مشكال علقه .. لا .. بسيطة .. وهل
هناك أبسط من ضرب مشكال .

وبلا أقل تفكير .. مد دكش يده .. فقبض على عنق مشكال .. وطرحه
أرضا ...

وعينك ما تشوف الا النور !

لقد لطف مشكال علقه لم يذق مثلها في حياته قط !

لقد كان دكش يضرب بمنتهى الإخلاص .. أولا لأنه يعرف أن مستقبل
صاحبه يتوقف على هذه العلقه .. وثانيا لأنه أمضى خمس سنوات يضرب الناس
من أجل مشكال .. أما في هذه المرة فقد استطاع أن يضرب مشكال نفسه .. من
أجل مشكال .

وعلا صراخ مشكال وهو يعوى كالكلب ، ويستغيث بحضرة الناظر .. ولم
يتخلص من بين يرائنه .. إلا بعد أن تعاون خمسة من الفراشين على أن يحولوا بينه
وبين دكش .

ومنذ ذلك اليوم ، استقام مشكال ، وانصلح أمره ، ولم يحاول قط أن
يستعين بدكش في حل أمر من أموره .. قائلا : « عدو عاقل .. خير من صديق
جاهل » ؟.

في الخليج المصرى

كان التنظيم في هذه المرة هو سبب كارثة « عم شلاطة » ، فقد تقرر توسيع شارع الخليج المصرى ووصله بدرب الجمايز بهدم ما بينهما من دور .. وكان بيت العنتيل أحد هذه البيوت .

أعرفه منذ خمسة وعشرين عاما .. عندما كان يطوف بشارع السيدة وأزقتها .. دافعا أمامه عربته الصغيرة المحملة بالقباقيب .

وهكذا كان عمله في ماضيه المجيد : بائع قباقيب متجول . وكان دائما ينتهى به المطاف إلى حجر بجوار « بيت العنتيل » بشارع الخليج ، حيث يستقر على الحجر ويأخذ في إصلاح القباقيب ودق السيور .

ولست أدري ما الذى دعا الرجل إلى أن يهجر مهنته المحترمة ، وهو الفنان الملهم ، الذى طالما تفتن في صنع القباقيب ، وتركيب الجلاجل الملونة .. ورسم النقوش وحفرها .. والسمو بصناعة القباقيب إلى مستوى رفيع .

كل ما أعرفه هو أننا فوجئنا ذات يوم بـ « عم شلاطه » ، وقد تربع على دكة خشبية أمام بوابة « بيت العنتيل » وهو يحتسى القهوة من وعاء صنع من قشرة جوز الهند ، وأخذ يسبل عينيه في كل رشفة وقد بدت عليه آيات الهناء . ولم نعلم بجلية الأمر إلا عندما وقفت أمامه « سيدة العرجاء » الخادمة تسأله أن يصلح قبقابها ، فرفع كتفيه وقلب شفتيه وأجابها بترفع وكبرياء :
— كان زمان وجير .

— ليه بقى ؟ حطوا على راسك ريشه ؟

— خلاص يا ستى .. ربنا تاب علينا من القباقيب .. وأصحاب القباقيب ..
بقينا من كبار الموظفين .

— موظفين مين يا ادلعدى ؟ انت نسيت « القباقيب العمولة القباقيب » ؟

— نسيتهم قوى ، أنا بقيت الحارس العام على أبواب بيت العتيل .. رجل ذو
مركز .. وذو دكة أتربع عليها وأنام وأشخر .. مالى أنا ومال اللف فى الحوارى
ونبح الصوت ومناكفة الزبائن « يا عم شلاطه صلح لى السير ده » ، « يا عم
شلاطه ادبنى فرده » .. دول زبائن آخر زمن .. الله يرحم زمان .. أيام ما كانت
الدنيا دنيا .. كنت ادور على موضة السيدة ألم القباقيب اللى فيها ، واخدهم وش
بالفارة ووش بالصنفرة وتانى يوم أبيعهم على أنهم جداد .. دلوقت خلاص بطلوا
القباقيب ، ما بقاش غير البراطيش .. الحمد لله ربنا تاب علينا .

وهكذا علمنا أن « عم شلاطه » قد طلق صنعته ثلاثا ، وانتهى به الأمر إلى أن
يعمل بوابا .. أو على حد قوله أصبح حارسا عاما لأبواب بيت العتيل .

وبيت العتيل هو أكبر بيوت الحى ، وأكثرها راحة ، وأعرقها نسبا .. بيت
من البيوت القديمة الضخمة ، ذات العمد والمشريات والسراديب ، التى تحاط
بهالة من الغموض والأسرار .. ويأتى المرجفون إلا أن يجعلوها مأوى للجن
والعفاريت .

واستقر المقام بـ « عم شلاطه » فى البيت المسكون فى مندرة بالدور
السفلى .. فقد كان البيت خاليا من السكان .. إذ رحل عنه آخر سكانه من أهل
العتيل لتشاؤمهم من البيت بعد توالى النكبات عليهم .. ووكلوا أمره إلى « عم
شلاطه » معلنين عن رغبتهم فى إيجاره .

ومرت السنون دون أن يتقدم إلى البيت مستأجر .. و « عم شلاطه » قابع فى
مندرته بالبيت .. ويدو أن الرجل قد استمر المرعى واستخصب المرتع .. فقد
أخذ يعم فى ترويح الشائعات عن الجن الذى يسكن البيت .. ويروى عنهم

الأقاصيص المحبوكة الأطراف .. الجيدة السبك .

وهكذا تعاقبت الأعوام على البيت الخرب .. وهو مستمر في خرابه ، لا يسكنه سوى عم شلاطه وأصحابه من الجن ، ولم يعد هناك أمل لأصحابه في بيعه أو إيجاره أو سكنه .. وانتهى به الأمر إلى أن أضحي وقفا على عم شلاطه ، وبات كل منهما جزءا متما للآخر .

ولقد وشك البيت ذات مرة أن يباع .. وكان مشتره رجلا ثريا رغب في ابتياعه لهدمه والانتفاع بأرضه ، لكى يشيد عليها عمارة كبيرة .. ولكن الرجل مات في اليوم الذى كان ينوى أن يكتب العقد فيه .. وبقي البيت كما هو ، ولم يعد هناك أمل بعد هذا في أن يقدم أحد على شرائه أو سكنه أو حتى الاقتراب منه .

وأصبح البيت محصنا ضد الدخلاء من سكان ومشتريين ، ولم يعد أحد من أهل الحى يتصور قط أن هناك قوة تستطيع أن تبدل حال البيت أو تبعد عنه عم شلاطه .. حتى جاء يوم خيب ظننا جميعا ، وعلمنا أن البيت قد حلت نهايته .

كان التنظيم في هذه المرة هو سبب كارثة عم شلاطه .. فقد تقرر توسيع شارع الخليج ووصله بدرب الجماميز بهدم ما بينهما من دور ، وكان بيت العتيل أحد هذه البيوت .

ولم تستطع شائعات الجن أن توقف فعل التنظيم ، ولم تجد محاولات عم شلاطه في منع الهدم نفعا .. وطلع علينا الصباح ذات يوم فإذا بالمعاول تقوم بواجبها في إزالة بيت العتيل ، الطويل العمر العريق النسب ، من على وجه الأرض ، وبعد أيام أضحي البيت الكبير أطلالا وأنقاضا ، وأضحى عم شلاطه على قارعة الطريق بلا مأوى ولا عمل .

ولم يحاول الرجل أن يعود مرة أخرى إلى صناعة القباقيب ، بعد أن تقدم به العمر ، فبات من العسير عليه أن يحول بعرفته بين الأزقة والحارات ، كما كان يفعل فيما مضى .

وانتهى الأمر بصاحبنا إلى أن يستقر في بقعة من الأرض الفضاء مكان البيت (بين أبو الريش ...)

المهدوم ، ويصنع لنفسه كوخا صغيرا وصندوقا لبيع الكازوزة من خشب الأنقاض .. واتخذ من الكوخ مأوى ومن صندوق الكازوزة متجرًا .

ولم يحاول أحد أن يحرم الرجل مأواه ، أو يمنعه من الاستقرار حيث شاء .. فقد كان مخلوقا حلوا الفكاهة .. لطيف المعشر .. ولقد جعله هدم البيت ، وبقاؤه بلا مأوى موضع عطف أهل الحى فأقبلوا على مساعدته .. وعرض عليه البعض إيواءه أو تشغيله ، ولكنه أبى أن يهجر موطنه .

وكثيرا ما كان يحاول أن أمر بالرجل وأقف عنده برهة لأتناول منه زجاجة كازوزة ، وأتحدث معه قليلا وأسمع منه آخر الأنباء والأقاصيص .

وذات يوم مررت به ، فإذا به قد جلس على حجر أمام الصندوق ، وانهمك في نشر قطع خشبية ومسحها بالفارة .

وقلت متسائلا :

— دا إيه ده يا عم شلاطه ؟

— قبقاب .

— يموت الزمار وصباغه بيلعب .. برضك ما تسلاش القباقب .

— أعمل إيه ؟ مجبور يا سيدى .. الله يلعن أبو اللى كان السبب .

وحاولت أن أسأله عن (اللى كان السبب) ولكنه هز رأسه وقلب شفتيه .

وفي اليوم التالى وجدته ما زال يدق بالقبقاب فسألته :

— لسه ما خلصتش ؟

— أعمل إيه لبنت الأروية .. عايزاه بجلاجل .

وأغرقت فى الضحك .. وبدأ لى أن عم شلاطه قد وقع فى غرام جديد ..

وأخذت أرقبه وقد اختفى رأسه بين كتفيه واحدودب ظهره ، وأخذ يخرج

المسامير من فمه واحدا بعد واحد فيدقها فى القبقاب .. وسألته ضاحكا :

— بتحب يا عم شلاطه ؟

— ياريت .. يعنى هو أنا كبير على الحب والا وحش ؟

— أستغفر الله !

و لم يثر عجبنا كثيرا أن يعود الرجل لصناعة قبقاب أو عمل جلاجل لسبب أو لغيره ، ولكن الذى أثار عجبنا حقا هو أن يستمر فى الدق ، والطرق ، وتحويل الأخشاب من كوم الأنقاض وقطعها ومسحها ، ولم يكن هناك شك فى أنه لا يصنع منها قباقيب ، فقد كان يقطعها ألواحاً طويلة عريضة .

وبدأ سكان الدور المحيطة يشكون من الضجة التى يثيرها الرجل أثناء الليل .. وحاول بعضهم نصحه بالكف عن الطرقات التى يحدثها ، ولكنه لم يرتدع .. فقد كان يواصل الليل بالنهار فى عمل ذلك الشئ المجهول الذى أخذ فى صنعه . وحيرنى ذلك الشئ ، وظننته فى بادئ الأمر أثاثا ينوى الرجل صنعه لكونه ، ولكنى لم أستطع أن أجزم أى نوع يصنع ، وخاصة أن كوخ الرجل المتواضع لا يكاد يحتل فى داخله أى أثاث مهما ضؤل .

وأخيراً وضح الأمر .. واستطعنا أن نعرف كنه ذلك الشئ الذى انهمك عم شلاطه فى صنعه ، والذى ركز فيه جهده ، وضيع فيه وقته .. ولقد كان حقا شيئا عجيبا .

كان ذلك الشئ هو آخر ما يخطر ببال إنسان ، وآخر ما يمكن أن يفيد منه الرجل ، أو ينتفع منه بشئ .. اللهم إلا إذا كان ينوى بيعه .. وهو ما لم يفعله . لقد كان يصنع سلما .. وعندما أقول سلما ، لا أعنى بالطبع هذا السلم الخشبي المتحرك المكون من عرقين طويلين مثبتين بقطع مستعرضة كالذى يستعملونه فى الحوانيت وفى البيوت ، بل أعنى سلما خشبيا عريضا ثابتا متينا ، ذا درجات ودرابزين متقن الصنع ، مما يستعمل عادة فى الدور الكبيرة ولقد أثبت عم شلاطه فى صنعه أنه نجار ماهر .

أجل .. هذا هو ما كان الرجل منهمكا فى صنعه ، وهذا هو ما بدأ فى تركيبه . أين ؟ .. على الأرض بجوار كوخه ، ملاصقا له .

لم ؟ ولمن ؟ من يدرى ؟

لقد أخذ « عم شلاطه » في تركيب السلم ، مبتدئا من الأرض ، ومنتها إلى مكان ما في الهواء .

لقد كان السلم ينتهي إلى لا شيء ، أو إلى السماء .
ودهشنا جميعا ، ولم يعد هناك من حديث لأهل الحى سوى سلم عم شلاطه ، وقال بعضهم إن شلاطه صنع السلم للصعود إلى الله ، وقال البعض الآخر إنه يصعد فيه ليشم الهواء أو للزحلفة على الدرايزين .

وهكذا أصبح السلم موضع النكات ، وأضحى الزوار يتوافدون عليه من الأحياء المجاورة ، من السيدة والحلمية وعابدين .
ولم يحاول عم شلاطه أن يحدث عنه أحدا .. بل كان يجلس أمام صندوق الكازوزة يرقب الناس في صمت وكأن الأمر لا يعنيه .

وأخذت أتحرق شوقا إلى معرفة سر السلم ، وأحاول أن أستدرجه إلى الحديث عنه ، ولكنه كان يمعن في صدى ، حتى مررت به ذات غسق في يوم صيف ركدت ربحه واشتد حره ، وجلست بجواره أسامره كما تعودت ، وكنا ونحيدين ، وقد خفت حركة المارة وخيم الصمت ، وران السكون ووجدتها فرصة لإعادة الكرة على أفوز منه بما يطفىء غلتي .
قلت له :

— برضك يا عم شلاطه مش عايز تقول إيه حكاية السلم ؟!
— يا أخى أنا مش فاهم السلم دا تا عيبكم فى إيه ؟ انتو شايلىنه على اكتافكم ؟
واحد شايلى دقنه والثانى تعبان ليه ؟

— بس عايزين نعرف يوصل لبفين ؟
— ليه ؟ أنا قلت لحد منكم تعال اطلع عليه ؟
— لا . بس فايدته إيه ؟ معمول ليه ؟
ورأيت الرجل قد أطرق برأسه ، وساد الصمت برهة ثم رفع إلى عينيه وقال فى صوت متشد كأنما يوشك أن يفضى إلى بسر خطير :

— عايز تعرف عملت السلم ليه ؟

وأجبتة بمنتهى اللهفة :

— طبعا ؟

وبدأ الرجل يقص قصته ، والرجل كما قلت محدث ماهر وقصاص ممتاز .
ولا أظن لدى الفراغ من الورق الذى يسمح بسرد قصته كما رواها . فإذا
صرفنا النظر عن التفاصيل والتحايث فإننى أستطيع أن أخلص القصة فى أن بيت
العتيل كانت تسكنه جنية تدعى سوسو العتيل ، وهى زوجة المرحوم الطيب
الذكر السيد شندى العتيل .

وسوسو هذه كانت فى حياتها امرأة لعوبا .. مفرطة الجمال فياضة الأنوثة ،
عاهرة فاجرة ، وقد أذاقت زوجها الأمرين ، وانتهى به الأمر إلى أن ضبط أحد
عشاقها معها فى مخدعها ، ولكنها استطاعت أن تهربه من النافذة ، وحاولت أن
تفر هى الأخرى ، ولكن زوجها لحق بها وأخذت تعدو منه فى أنحاء الدار حتى
لحقها قرب الباب فأمسك بها ورفعها بين يديه وقذفها من أعلى السلم فهوت إلى
بئر السلم ودق عنقها ، ولم يكتف الرجل بهذا بل لحق بها إلى أسفل السلم
وأمسك بعنقها وجزه بسكين فى يده .

ويhez عم شلاطه رأسه ويتم قصته فى صوت مؤثر :

— وكانت الدنيا ضلمة ، والوقت نص الليل ، والهوا بيصفر ، وهبت الريح
ففتحت درفة الشباك الى على السلم ، وطلع القمر من بين السحاب فوقع نوره
من الشباك على القاتل فى يده السكينة والجثة وهى كوم من اللحم غارق فى بحر من
الدم .

ولم أستطع أن أكمم ضحكة انطلقت منى وقلت ساخرا :

— دى قديمه دى يا عم شلاطه . ما هى دى الحكاية الى طول عمرنا بنسمعها

عن العفريته الى فى بيت العتيل !

وأطرق عم شلاطه برأسه ثم قال فى صوت خفيض :

— حقيقى دى الحكاية الى انتو عارفينها . لكن ماتعرفوش بعد كده حصل إيه !

— حصل إيه ؟

— أنا قعدت عشرين سنة فى بيت العنتيل ، كل شهر فى نفس الميعاد لما البدر يبقى فى تمامه أشوف العفريته وهى بتسقط من فوق السلم ، وبعدين تقول لى أنا فى عرضك خلص على .. فأجيب السكينة وأروح مخلص عليها لغاية ما اتهد البيت وافتكرت خلاص أنها راحت .

وحدت ربنا الى ريحنى من تعب القلب ومن البلاوى الى كنت باشوفها ، وقلت استريح من الدبح شويه واقضى بقية العمر مستريح بعد تعب عشرين سنة .. هى كانت حاجه بالساهل ؟ ده كان دبج ، وأنا راجل طول عمرى مصلى ومستقيم ، حقيقى البنت تستاهل الدبح ، وحقيقى أنها كانت — على رأى من قال — عفريته ، لكن أهو برضه دبج ، وسكينه بتحز فى رقبة ودم ببسيل ، وحكاية مالهش آخر ، ماتنتهش أبدا ، كل شهر عمال على بطلال ، وأنا قلبى برضه ضعيف ، أصل البنت بينى وبينك كانت بنت ملعب ، وكان القمر يطلع عليها من الشباك وهى راقدة بقميص النوم تحت السلم ، حاجه تهبل ، جتة إيه ، وصدر إيه ، وبطن إيه ، ووراك إيه ، تقولش مهلبيه ، والا بلوظه ، حاجه كده طريه وناعمه وزى القشطه ، تتشفط وتتلهط ، دى كان عليها جوز درع زى كيزان العسل ، والا وسطها ، ياهوه ، تقول ملبن والا خص ، وعنيها يا خويه عليها غمزه تسطل فشر الحشيش ، المقصود ، اللهم اخزيك يا شيطان كانت بنت ملعب قوى ، وكانت أول ماتشوفنى تروح غمزه بعينها ومصرخه بدلع وتقول :

— عم شلاطه .

— عايزه إيه من عم شلاطه .

— خلص على يا عم شلاطه .

— يا شيخه كفاهه دبج بقى .

— اقصف رقبتى يا عم شلاطه .

— يا ستى ماتسيينا بقى من الشغله دى .

— يوه .

وانا أصلى رقيق ما استحملش صراخ النسوان .. فكنت اروح ماسك
السكينه وجازرها ، وعلى كده كثير ؟! عشرين سنه .

وما صدقت البيت اتهد وقلت استريح وأستكن فى العشة وصندوق الكازوزة
وربنا يتوب على من الدبح والتقتيل .

وفات يومين والتالت وأنا مستريح فى العشه ، وفى اليوم الرابع صحيت فى نص
الليل على صوت عجيب زى ما تكون حاجه بتهد ، وبصيت لقيت شباك العشه
مفتوح ونور القمر طالل منه . أتايينا فى نص الشهر . اتلفت حواليه مالمقيتش
حاجه ، رحت نايم تانى ، ولكن بعد شويه سمعت نفس الصوت بس على شويه
وبقى حاجه زى التنهه .

أقول لك الحق اتخضيت ، رحت قاعد نص قعده وصارخ بأعلى صوت :
— مين هناك ؟

فرد على صوت حريمى نواعمى :

— يوه .. ينيلك يا عم شلاطه ؟ مالك بتصرخ كده ليه زى المجانين ؟

خضيتنى وسيت ركبى ؟ . أنا سوسو .

— رجعت تانى ؟! هو ربنا ماتابش علينا منك ؟

— اخص عليك يا عم شلاطه .. هو انت زهت منى .

— أبدا زهت ازاي .. هى دى حاجه ترهق ؟!؟

— اخص عليك يا خاين .

— ليه بس يا ستى . خاين ليه ؟

— عشان نسيت اللى بتعمله كل مره .

— آه .. مش يعنى اخلص عليكى . حاضر من عنيه .

- لأ .. المره دى حاجه تانيه .
وبصيت لجنتها لقيتها مسلطحه على الأرض ، وكل فخذ وفخذ فشر البلوظه .
حاجه تانيه ايه ياخويا ؟ اللهم اخزيك يا شيطان ، أنا رجل مؤمن ومصلى
وماحبش المسخره .. شخبطت فيها وقلت لها :
— حاجه تانيه إيه يا بت ؟
— يعنى مانتش عارف ؟
— اللى انا عارفه أنك بنت خبابه وهلاسه وتستاهلى قصف رقبتك .
— ما هو ذا اللى أنا عايزاه .
— عايزه ايه ؟!!
— قصف رقتى .
— طب وانا مالى ماتقصفها .
— أقصفها ازاي من غير سلم .. بعد ما تهدوا البيت وتكسروا السلم
وتسيبوني كده محتاره مش لاقيه حاجه أنزل ارف من عليها تتقصف رقتى .. هو
دا برضه كان يصح ؟
— يا ستى وانا مالى .. ذنبى إيه أنا .. التنظيم هو اللى هد البيت .. أعمل
لهم إيه ؟
— تنظيم مش تنظيم أنا ماليش دعوه .. أهو تطلع تنزل تجيب لى سلم من تحت
طقاطيق الأرض .. ذنبى فى رقبتك .. انت المسؤول .
وفضلت تنهنه وتعيط وتلالى :
— أنا عايزه سلم ، وأنا عايزه سلم ، وأنا مالى هاتولى سلم .
— يا ستى اسكتى .. خلينى اتخمد .
مافيش فايده راسها وألف سيف إلا عايزه سلم تقصف بيه رقتها .
تفتكر بعد كده أقدر ما اعملش السلم ؟
عرفت بأه ليه عملت السلم ؟ .. استريحى ؟

وتذكرت فجأة أن اليوم هو منتصف الشهر العربى . أى اكتمال البدر ، وأحسست برغمة برجفة تسرى فى جسدى ولكنى سرعان ما ضحكت من نفسى . إن كل ما يرويه الرجل لاشك خرافات مخبول .

وتلفت حولى أرقب السلم وأخذت أتصور وضع البيت قبل أن يهدم فلم أشك أن السلم الجديد وضع بالضبط مكان السلم القديم .

ونظرت أسفل السلم .. فإذا بى أرى آثار دماء داكنة متجمدة !!

وأحسست بركبتى ترتجف ووجدتنى أزرد ريقى بصعوبة ونهضت من مكانى وودعت الرجل فى عجلة قبل أن يتتصف الليل .

— أجل .. إن منظر الدماء قد قطع عندى كل شك ، وعدت إلى الدار وقضيت ليلة لا أراكم الله مثلها .. كلها أحلام بالجن والقتلى ، والمذبوحين ...

وفى الصباح مررت بعم شلاطه من بعيد فوجدته منهمكا فى ذبح بعض دجاجات حملتها إليه إحدى خادومات الدور المجاورة ، ووجدت الفراخ تتخبط فى دمائها أسفل السلم .

لعنة الله على .. كان يجب أن أذكر أن ذبح الدواجن كان ضمن الخدمات التى يؤديها عم شلاطه لأهل الحى .. حتى لا أفزع كل هذا الفزع من منظر الدماء المتجمدة فى أسفل السلم وأصدق خرافات الرجل .

في الناصرية

هنا مستوقد الناصرية .. خرابة متربة .. ذات هضاب
ووهاد .. وسراذيب وجحور .. وأرض ليست فيها قطعة
مستوية ممهدة .. فهي أشبه بنموذج مصغر لجبل مقفر ..
يقوم بين أطلال بائدة ورسوم حائلة .

جولتنا في هذه القصة بمستوقد الناصرية !

ألا تعرفونه ؟!

ألم يسبق لكم الذهاب إليه ؟!

ولكنكم لاشك تعرفون — على الأقل — ما هو المستوقد .. ذلك الشيء الذي
يضرب به المثل في القذارة ، وهو بمعنى أوضح المستقر الأخير لزيابكم
وقاذوراتكم ونفاياتكم .

إنه مجمع الزيالين .. أو جهنم الحمراء في أرضنا السعيدة .. أو — بتعبير أقل
تواضعا — الفرن الذي تحرق فيه الزيالة .

والمستوقد عادة .. لا يقتصر على مجرد حرق الزيالة .. بل إن له في بلدنا هذا
منافع جمة .. يحصل عليها من الحرارة الناتجة من عملية الحريق .. أهمها : إنضاج
قدور الفول المدمس ، وتسخين المياه لحمامات السوق ، واستعمال التراب
المحروق الذي يسمى « قصرمل » في عمل مونة للبناء .

وهكذا نستطيع أن نستنتج دون حاجة منا إلى إجهاد أذهاننا أنه في كل
مستوقد .. معمل فول .. وحمام .. ومصنع مونة .

والآن تعالوا بنا إلى المستوقد .

لنبدأ السير من ميدان السيدة .

قفوا في الميدان .. والسيدة في ظهركم .. ومراسينا على يمينكم .. والكومي على يساركم .

يمحوا شطر الميسرة .. واتجهوا إلى الكومي ، وسيروا بجوار سور مدرسة السنية .. على الرصيف من فضلكم .

لا تريدون السير على الرصيف !؟

— له ؟!

لأن رائحة الصنان المتصاعدة من المبال المتناثرة على الرصيف تزكم أنوفكم .. لا بأس عليكم .. تحملوا .. فنحن ذاهبون إلى مستوقد .. لا إلى حفلة راقصة . لندخل الآن في شارع الناصرية .. تاركين على يسارنا المبتديان ، وشارع خيرت .. لا داعي للسرعة .. تمهلوا .. نحن في نزهة .

قفوا بنا قليلا .. أمام هذه المقلة .. إنها شهر مقلة في حى السيدة ، ودعونا نبتاع شيئا من الكناسة ، فهي أرخص كثيرا من شراء صنف بعينه .. وهى حاوية لجميع الأصناف الموجودة في المقلة .

أجل ..! أجل ..! بقرش كناسة سيكفيينا جميعا .. وستجدون فيه الكثير من القول السوداني ، أو على الأقل بقاياها .. وفتافيته .

اطلبوا الزوادة من فضلكم .. وزوادة الزوادة .. إنها تقاليد لا بد منها .. والرجل نفسه قد أدخلها في حسابه ، فهو لم يعطنا كل حقنا .. لأنه واثق أننا سنستجدي بقيته .. إنه أشبه بالساسة الإنجليز .. أم هم الذين يشبهونه !؟

والآن هيا بنا نتمم سيرنا .. متلكنين مقرزين .. منشدين ما يحلو لنا من الأغاني .. ولتكن « سلم على » .

« لما جابلنى .. وسلم على .. يابوى يابوى » .

تمهلوا .. لقد وصلنا .

أين هو المستوقد ؟

إنه لا يبدو له أثر .

أعرف ذلك .

أعرف أنه بلا لافتة ، وبلا شيء يدل عليه .. ومع ذلك فإني أجزم أننا وصلنا .

هذا هو الشارع المتسع قليلا ، وهذا هو جامع الرماح ، وقد دخلت واجهته عن بقية الشارع ، وبدت أمامه رحبة متسعة .. وهذه هي حارة « درب البندق » .. وزقاق جامع الرماح .

أجل ! لقد وضح الأمر ، وانجلي الشك .

كيف لا .. وهذه هي « جزارة الإخلاص » .. وعم حسن الطرشي الواقف على باب الحمام .

إن البابين متقاربان .. باب المستوقد ، وباب الحمام .. أو باب القذارة ، باب النظافة .. أو على الأصح باب القاذورات محملة في عربات .. وباب القاذورات محملة على الأجساد .

دعونا ندخل في الباب الأول .. أعني باب المستوقد .

إنه يفضى بنا إلى معبر ضيق مترب مظلم ، في داخل البيوت .. هيا بنا نعبره . ثم قفوا بنا .

هنا مستوقد الناصرية .. خرابة متربة ، ذات هضاب ووهاد ، وسرايب وجحور ، وأرض ليست فيها قطعة مستوية ممهدة .. فهي أشبه بنموذج مصغر لجبل مقفر ، يقوم بين أطلال بائدة ، ورسوم حائلة .

وفي ركن من أركان الأرض الخربة ، وبين هضبتين من هضابها ، رصت القدور المتباعدة السوداء الملأى بالفول وقد وقف أصحابها يحكمون عليها الغطاء ، بعد أن خلطوا الفول ببعض العدس حتى يعطيه لونا ورائحة ..

ويتلفت أصحاب القدور حولهم فى قلق وانتظار كأنما يبحثون عن شىء ،
ويظهر لهم نجاة هذا الشىء الذى يبحثون عنه ، ويصبح به أحدهم مستحثا :
— يا لله يا شحير .

ويخرج شحير من ثنيات الأرض كأنه شيطان أو جنى لا يكاد يبدو به شىء
من الأدميين ، فهو أشبه بالجلد المقدد أو بقطع البسطة القديمة العفنة ، أو بفردة
حذاء قديمة طال بها العهد بجوار العتقى حتى تحجر جلدها .. أو .. أو .. بأى
شىء عدا الأدميين .

هيكل عظمى أسود أغبر .. لو ذبحناه لما وجدنا به سوى جلد وعظم ..
وحتى الجلد نشك فى وجوده إذ يبدو لنا أن الجلد الأصلى قد تآكل ، وحلت محله
طبقة سميكة سوداء من العرق والتراب والهباب .

وتقدم شحير .. رب المستوقد ، وحاكم الخرابة .. متاقل الخطى .. وبدا
وجهه غائر العينين ، بارز عظام الوجنتين ، حاد الأنف ، واسع الفم فاغره ،
كأنه غراب يلهث ، أو كلب ظمآن ، قد وضع على رأسه لبدة جمدت عليها
الأفذار حتى تشققت ، وغطى هيكله العظمى بقميص ممزق كشف عن ذراعين
كالعصى ، وساقين كالجرید ، وقد حزم وسطه بسير من الجلد أسود عريض .
وعادت أصوات أصحاب القدور تستحثه « مد شويه يا شحير .. الله يخرب
بيتك زى ما عطلنا » .

ولم يمد شحير ، ولم يبد عليه أنه قد تأثر كثيرا من دعوتهم عليه بأن يخرب الله
بيته .. إذ كان واثقا تمام الثقة أنه ليس هناك خراب يمكن أن يصيب بيته أو خرابته
أكثر من الخراب الذى بها .

ووقف « شحير » يستلم القدور ويعدها ويكشف عليها واحدة واحدة ،
حتى لا تكون إحداها مشروخة أو ناقصة .

وانتهى « شحير » من عملية الاستلام .. ثم قال بصوت أجش :
— ثمان قدور فول ، وأربعة بليله .

وكان قوله هذا بمثابة أمر لأصحاب القدور بالانصراف . وهبط الرجال من الخرابة متفرقين في الشارع ، وألقى « شحير » على القدور نظرة مترفة وأخذ يربت عليها ويتحسسها في رفق وكأن بينهما صلة ووداد أو رابطة قرى .

كان « شحير » يحس أن القدور هي كل ما له في الحياة ، هي مورد رزقه ، ومؤنس وحشته .. هي بنوه وخلاته في دنيا حرمة البنين والخلان ، كان يقضى معها جل وقته ، وكان يعرفها قدرا قدرا . ولم يكن يشك في أنها تعرفه وأنها تبادله وفاء بوفاء وحبا بحب .

وكان يسمى كلا منها باسمها الخاص فأحداها زكية والثانية بهية أما الأخرى المكسورة الخافة فهي أم السعد والرابعة هاتم ، والخامسة والسادسة إلخ ...

وانحنى شحير على بهية ، ليرفعها على كتفه وهبط بها إلى باطن الأرض حيث الجحر الذ تنضج فيه القدور .. عندما سمع صوتا يصبح به :

— شحير .

ورفع الرجل جسده من فوق القدر والتفت إلى ناحية الصوت الذي أتى من الشارع وأجاب بصوته الأجش :

— طيب .

ثم هبط من الخرابة إلى الشارع ، وصاح بالنادى سائلا إياه :

— آخر نقله ؟

— أيوه .

— فرغها عندك .

وبدأ « سيد » يفرغ حمولته .

ولم يكد ينتهي من عملية التفريغ حتى صاح :

— حا .. شئ يا بتاع الكلب .

ورفع في يده سوطا ثم أهوى به على ظهر الحمار الذي شد إلى عربة الزبالة وسارت العربة تفرع بعجلاتها أرض الشارع وانطلق سيد يغنى بصوت مرتفع رنان :

يابو الطقية الشيكه مين شغلها لك

شغلت بالى إلهى ينشغل بالك

وقف شحير برهة حائرا فيما يفعله ، أينزل القدور إلى الجحر أولا ، أم ينقل الزبالة إلى الفرن ، ثم استقر به رأى على أن ينتهى من الزبالة والفرن ، ثم يتفرغ لنقل القدور ورصها فى الجحر ، وأمسك بأحد الغلقان وبدأ يحول أكوام القمامة قاذفا بها فى فجوة فى منتصف الخرابة ، وهذه الفجوة كائنة فى سقف الحجرة التى بها الفرن فتستقر الزبالة فى أسفلها ، ثم يهبط شحير إلى جحر مظلم ينتهى بفتحة الفرن الذى تتأجج فيه النيران فيقذف فى جوفه بالقمامة ليزيده اشتعالا ويزيد عرقه تصبيا وتسطع على وجهه النيران الحمراء فيبدو كأنه من زبانية جهنم .

وانتهى أخيرا من نقل الزبالة وقذفها فى الفرن واتجه إلى القدور فرفع بهية وحملها على كتفه وسار بين هضاب الخرابة متجها إلى فتحة أخرى غير التى يهبط منها إلى الفرن ونزل فى جحر أطول من الآخر وأشد ظلمة ، وبدأ ينحدر فى داخله . فلما وصل إلى منتصفه كانت الظلمة قد تكاثفت حتى لم يعد يبصر طريقه فأنزل القدر عن كتفه وتحسس بيده مكانا فى جدار السرداب فمست يده مصباحا من الصفيح ، وأخرج من جيبه علبة ثقاب فأشعل المصباح ، وعاود الانحدار فى الجحر الضيق الملتوى حتى وصل فى النهاية إلى متسع يقع فى ظهر الفرن ، فتشع فيه الحرارة حتى تجعله أشبه بالجحيم .

وينزل شحير القدر ، ثم يعود أدراجه لإحضار بقية القدور ويرصها متجاورة ، ثم يربت عليها ويتحسسها فى حنان ويتركها فى الجحر حتى ينضج ما بجوفها من فول ولبيلة .

وعندما انتهى من عمله كان الليل أرخى سدوله ، والظلمة قد شاعت فى أنحاء الخرابة .. فأضحى كل ما بها أسود معتما إلا فتحات صغيرة بدت فى منتصفها وقد شع منها الضوء .

وكانت الفتحات تبدو غريبة وسط المستوقد الخرب المظلم ، أو على الأقل

تبدو غريبة للزائر الجاهل بالمكان ، ولكننا لو سألنا أهل زمان ، أو سألنا شحير ، لأنبأنا ببساطة .. أنها الفتحات الكائنة فى قبة الحمام .. الملاصق للمستوقد ، والذي يستمد حرارته من فرن المستوقد الذى تحرق فيه الزبالة .

وهكذا يتبين أن سطح المستوقد كائن فوق الحمام ، وأن المكان الذى يتوسط الخرابة هو سقف الحمام ، وأن الفتحات التى يشع منها الضوء هى قبة المغطس . وجلس شحير بجوار القبة وقد أخرج من جيبه نصف سيجارة فأشعلها وأخذ يشد منها أنفاسا بطيئة طويلة ، وهو يحملق فى النجوم ، ثم يلقي نظرة سريعة على قبة الحمام وقد تعالت منه أصوات المستحمين والمكيساتية .

وقد يبدو غريبا ما وصفناه من قذارة الرجل ، رغم أن الحمام لا يبعد عنه بضع خطوات ، ورغم أن لولاه لما كان الحمام فهو الذى يهين له الوقود ، وهو الذى يسخن مياهه .

ولكن شحير كان يجد أن استحمام مثله ضرب من ضروب العبث ، ما فائدة أن يضيع الساعات فى إزالة الأتربة والقاذورات عن جسده ، ثم يعيدها إليه فى ثوان معدودات ينزل فيها إلى القرن ، أو إلى جحر القدور ، أو لينقل فيها الزبالة . لا . لا . ليس هناك داع للاستحمام قط . إن جسده قد تعود الأقدار ، بل لقد أضحى هو نفسه مركبا من الأقدار ، ومن يدرى أنه لو استحجم وأزال القاذورات ، ألا يبقى منه سوى كوم من العظام ، هذا إذا لم تكن الأقدار قد نفذت إلى عظامه ؟

وهكذا أقنع نفسه أن الاستحمام شئ خطير ، وأن المياه لا بد أن تكون عدوا لدودا له ، واقتنع من الاستحمام بالجلوس بين آونة وأخرى لمراقبة المستحمين من فتحات القبة ، ومشاهدتهم يهبطون بأجسادهم إلى المغطس الذى تكاد مياهه تصل إلى درجة الغليان ، ثم يصبرهم وقد خرجوا من المغطس فاستلقوا على مضجع حجري وأقبل عليهم المكيساتى وقد وضع فى يده كيسا جلديا ، وأخذ

يدلك جلداهم ويوسعه حكا وفركا ، ويخرج منه أكوام الأقدار المبرومة السوداء .

وتصيب شحير رجفة من ذلك المنظر . إذ يتخيل نفسه وقد تمدد مكان الرجل ويصير بعين الوهم جسده وقد تحلل وذاب تحت كيس المكيساقى . فلا ينتهى من عملية التكييس حتى يكون قد انتهى هو ، ولم يبق منه شيء ، وتحول بفضل كيس المكيساقى إلى كوم من الأقدار المبرومة كذلك التى يراها تخرج من أجساد المستحمين .

ويعد « شحير » عينيه فى فزع عن الفتحة التى يطل منها . ويدعو الله ألا يوسده هذا المضجع المروع البشع ، الذى لاشك أنه سيلقى فيه حتفه لو توسد مضجعه .

وفى تلك الليلة لم يحاول أن يطل على رجة الحمام ، فقد كان يحس بشيء من التعب فضل معه الاستلقاء فى موضعه ، ولم تمض برهة حتى راح فى سبات عميق .

ولم يدر كم طال به النوم حتى استيقظ فجأة . جلس فى مكانه يفرك عينيه وتلفت حوله على يعرف الوقت وبدا له أن الساعة قد جاوزت منتصف الليل فقد ران السكون على كل ما حوله ولم يبد فى نوافذ الدور أثر لضوء .

وأدهشه أن يجد فتحات الحما ما زالت مضيئة ، وأن يصل إلى أذنيه بعض أصوات كأنما هناك إنسان ما زال يستحم .. فما كان الحمام يفتح أبوابه للمستحمين حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وما تعود أن يرى الفتحات تضىء بعد منتصف الليل .

وتحرك شحير من مكانه وركع على ركبتيه وأطل بعينه من إحدى الفتحات ليرى هذا المستحم العجيب فى جوف الليل ، من يدرى ؟ قد يكون سارقا ، فيستطيع أن يضبطه ، ويبلغ عنه عم إبراهيم الحمامى صاحب الحمام . وبهت شحير ، وكم أنفاسه ، فقد وقع بصره على منظر أذهله .

قد أبصر أمام عينيه إنسانا قد هبط بجسده في مياه المغطس ولم يبد منه سوى رأسه وكان الرأس : رأس امرأة !

هذه ولاشك زوجة المعلم إبراهيم ، أو ابنته أو إحدى قريباته قد انتهزت فرصة الليل ، فهبطت من الدار الكائنة بجوار الحمام ، لتنعم بخلوة هادئة . ومضت فترة وشحير يخلق من الفتحة .. ينتظر البقية .. بقية المرأة ، وطال انتظاره وهو متصلب في مكانه حتى بدأت المرأة تخرج بجسدها من المغطس رويدا رويدا .

وأخيرا وقعت في منتصف الحمام ، عارية بلا أى ساتر ولا حجاب . وابتلع شحير ريقه وأخذ يحدث نفسه مشدوها :

هذه لا يمكن أن تكون امرأة عم إبراهيم ، فإن من الحق أن يتخيل أن امرأة عم إبراهيم لها مثل هذين الثدين المستديرين المتحجرين ، ولا مثل هذين الردين المتناسكين .

من تكون إذا ؟!

لاشك أنها امرأة تسلت إلى الحمام لكي تستحم خلصة . وبدأ الشيطان يوسوس في نفس الرجل ويفريه بالمرأة ويسر له أن يهبط إليها ، ولكنه أخذ يحذر نفسه قائلا :

— أنا أهبط إلى الحمام ؟ أجننت ! أنا أدخل الحمام ؟

وأجابه الشيطان :

— وماذا في ذلك ، إنك لن تستحم .. إنك تستطيع أن توهيها أنك عم

إبراهيم صاحب الحمام .. أو حتى تهددها بأنك ستشئ بها .

— ولكن هبها طلبت منى أن أستحم معها ؟

— وماذا في ذلك .. أستحم !

— أنا أستحم ، هذا معناه الموت .. لا .. لا .. لن أنزل إليها .

— أيها الغبي ، إذا كنت تخاف الاستحمام ، فلا ضرورة له ، قل لها إنك لن

تستحم !؟

وهكذا أقنع شحيير نفسه بالتزول إلى الحمام ، وبألا يضيع من نفسه هذه الفرصة الذهبية ، وسرعان ما اتجه إلى الباب الخلفى للحمام الذى يطل على المستوقد ، فدفعه فى رفق وأخذ يهبط الدرج فى حذر وسكون ، ولم تمض لحظة حتى كان فى داخل الحمام ، أمام المرأة العارية وجها لوجه .

وفزعت المرأة فى بادئ الأمر ، ولكن شحيير أخذ فى طمأنتها وتهديتها . وبدأ يدخل معها فى دور ملاطفة ومغازلة وإعجاب . فاطمأنت المرأة إليه وسرى عنها .

وفجأة سألت السؤال الذى لم يكن يخشى سواه .. قائلة « ألا تنسوى الاستحمام » وحاول أن يخفى فزعه وأنبأها أنه قد استحجم . فضحكت المرأة وأخبرته أنه لا يبدو عليه أنه قد استحجم منذ مائة سنة ، وأصرت على أن يستحم معها .

ورفض شحيير ، فعادت تصر ، وأمسكت به تريد أن تدفعه بثيابه إلى المغطس ، فعدا منها هارباً نحو الباب ، ولكنه وجد أمامه فجأة .. ما روعه .. وجعله يتسمر فى مكانه من فرط الذعر .

لقد أبصر أمامه المكيساتى وفى يده سلاحه الماضى : الكيس الجلد . وأدرك شحيير أن المسألة لا بد أن تكون مؤامرة لاغتياله بالحوم والتكيس ، وصرخ صرخة مدوية ، وحاول أن يفر من الرجل ، ولكن الرجل أمسكه بشدة وطرحه أرضاً ونزع عنه قميصه ، وظهر رجل آخر وحمله الرجلان من ساقيه وقدميه فكدفا به إلى المغطس .

وصرخ شحيير وأحس بجسده يذوب فى الماء الساخن وبذل جهده حتى استطاع الخروج من المغطس .. فتناوله الرجلان وأضجعاه على المضجع الميت ، وبدأ المكيساتى عمليته المروعة ، وشحيير يتلوى بين يديه ويصيح مولولاً :

« آه يا شحيير .. مت يا شحيير .. يا خسارة قدر الفول والبليله حاتيتيم بعدك يا شحيير » .

وأخذ شحيير ينظر إلى كوم الأقدار التى تخرج من جسده وهو يعلو ويكبر ، ويرى جسده يتضاءل وينكمش .. وشيئا فشيئا أحس بأطرافه تتأكل وتنقرض ، وأنه يفنى قطعة قطعة ، فأغمض عينيه وصاح فى صوت يائس مبحوح : « ارحموني .. أنا فى عرضكم . تبت إلى الله » .

وفتح شحيير عينيه وهو يقول « تبت إلى الله » ، وتلفت حوله وتحسس جسده وأعضائه ، فإذا به مازال سليما وإذا به مازال فوق قبة الحمام لا أسفله ، وإذا بكل ما رآه لم يكن إلا حلما .

وقفز الرجل من مكانه فى فرحة شديدة وهبط إلى الجحر الذى رص فيه القدور ، وأخذ يحتضنها باكيا ، وهو يقول :

— تبت إلى الله ، إذا كنت أبص لغيركم .. ساعينى يا زكيه .. وانت يا بهيه .. وانت يا ام السعد .

ومن ذلك اليوم ، لم يحاول شحيير أن يقترب من فتحات الحمام ، خشية أن تتحقق الأحلام فيضيع على حد قوله « فى شربة ميه » .

فِي الْمَبْتَدِيَانِ

وأخيرا استقر بى الرأى على خطة مثل لم أشك فى أنها
ستوصلنى إلى بغيتى .. وتركت الدار متجها إلى المدرسة
كعادتى .. عابرا شارع الخليج ، ودلفت فى الحارة المفضية
إلى جينية رشيد والمسدودة بسلسلة مشدودة بين حجرين
لنوع دخول العربات ، ثم اتجهت إلى المبتديان مارا بالقصر .

فى ليلة من ليالى رمضان .. انتفخت منى المعدة واسترخت الأطراف ،
وتمددت على إحدى الأرائك كالترنخ الثمل .

وأحسست بالنوم يهاجمنى بشدة ولما تمض بضع دقائق على انتهائى من
الإفطار ، وخشيت إن أنا استسلمت للنوم ، أن يثقل الأكل على معدتى فأصاب
بعسر هضم وكابوس يقض مضجعى ويكتم أنفاسى .. فنهضت متثاقلا ، ولم
أجد طريقة لطرد النوم سوى مغادرتى الدار :

ولم يكن لدى من الجهد ما يعيننى على ارتداء ملابسى أو النزول إلى البلد ..
ورأيت أن خير ما أمضى به سهرتى هو أن أذهب إلى صاحب لى يقطن على مقربة
منى ، فنضيع الوقت فى السمر أو فى لعب الطاولة .. ولا سيما وأن داره لا تكاد
تخلو من بشلة مرحة مسلية ، يترأسها دائما خال صاحبنى ، شيخ هازل ماجن
طروب مهذار .. يدعى محمود أفندى الباشكاتب أو كما تعودنا أن نناديه
« الباشكا » .

وضعت الروب على كفى ودسست قدمى فى شبشب وسرت أطرقع به حتى

بيت صاحبي .

وهناك وجدت الرفاق يتندرون بأحاديث الغرام ومغامرات السعشق ، وسمعت أحدهم يروى كيف اضطر إلى أن يبيع الذرة المشوية حتى يستطيع أن يقف بعربته أمام بيت فتاة كان يعشقها فيتيح لنفسه أن يراها أطول مدة ممكنة دون أن يتشكك أحد في أمره ، ويروى لنا آخر كيف اشتغل ساعى يريد ليوصل خطابا إلى عشيقته .

ونظرت إلى محمود أفندى فوجدته قد وضع ساقا على ساق وبدأ سرواله الفانلة الطويل واصلا حتى قدميه ، وأخذ يهز قدمه هزات منتظمة وقد تدلى منظاره ذو الإطار الذهبى على أرنبة أنفه ، ودفع بطاقيته إلى الوراء حتى استقرت على مؤخرة رأسه ، واستندت عباة على طرف كتفيه ، وتدلّت بقيتها على الأرض وبدأ من خلالها جلبابه الأبيض .

وكان الباشكا .. صديقا حميما لنا .. ولم يكن تفاوت السن بيننا وبينه ليقف عقبة في سبيل صداقتنا .. ورفع الكلفة بيننا .. فقد كان صبي الروح .. شديد المر .. جم الفكاهة .

ورأيت الرجل يقلب شفتيه وهو يستمع إلى مغامرات الرفاق ثم يهز كتفيه ويقول في سخرية :

— هذه كلها أشياء تافهة .. أين تذهب مغامراتكم بجانب مغامراتنا ، وأين شقاوتكم من شقاوتنا ، وعفرتكم من عفرتنا ؟!

وكنا نعرف أنه كذاب كبير ، وأن ثلاثة أرباع أقاصيصه عن نفسه من نسج الخيال وبنات الوهم . ومع ذلك فقد كنا نلهف على سماعها ، فقد كان الرجل قصاصا مجيدا ، وراويّة متفنتا ، وكانت أحاديثه تحملنا إلى أجواء شديدة الشبه بتلك التى تحملك إليها ألف ليلة وليلة .

وصمت الرجل برهة وقال له أحدنا يستحى على الحديث :

— قص علينا إحدى مغامراتك الغرامية .. يا سيد باشكا .

وتنحني الباشكا وهز رأسه وبدا كأنه يستجمع شوارد أفكاره ثم أخذ يقص علينا قصته قائلا :

— كان ذلك في أيام الصبا ، عندما كانت الدنيا دنيا .. وعندما كنتم أنتم ما زلتم في عالم الغيب ، وكنا نقطن في جنينة لاظ في حى السيدة ، وكنت أنا طالبا بالمدرسة الثانوية الملكية (الخديوى إسماعيل) وكنت وقتذاك رئيسا لفريق الكرة ، ورئيسا لفريق الجمباز (كان الرجل لاشك كاذبا في دعواه فقد أنبأنى صاحبى « ابن أخته » أن والدته أخبرته إنه كان أخيب خلق الله) وكنت كذلك شهيرا بالوسامة والوجاهة ، وكنت أستطيع أن أوقع أية فتاة بمجرد إشارة من يدى ، ومع ذلك فقد كنت زاهدا فيهن مترفعا عنهن .

وتعودت وبعض أصحابى عند عودتنا من المدرسة أن نمر بقصر كبير ذى حديقة غناء يقع في جنينة رشيد على ناصية شارع المبتديان .. وتعودنا أن نبصر أمامه في بعض الأحيان عربية فخمة مطهمة شد إليها جواد أبيض عربى أصيل وكانت العربية من النوع المغلق الصغير ذى الباب الواحد ، وحدث ذات مرة ونحن نمر بباب السراى أن لحنا امرأتين تهبطان في الحديقة ، وقد اتشحتا بالحبرة السوداء ، والبرقع الأبيض الذى لا يظهر منه سوى عينين تتألقان .

وتكررت رؤيتنا للمرأتين واستطعت أن أميز أنهما امرأة وفتاة ، وبدأت أحس ببعض اللهفة على رؤية الفتاة والحديث معها ، وأخذت أتسكع بعد الخروج من المدرسة بين الدواوين والمبتديان حتى يحل موعد خروجها .

وبدأ الرفاق يسخرون منى ويتهموننى بالحب .. ولم يضايقنى بالطبع أن أتهم بالحب ، ولكن أثارنى منهم لهجتهم الساخرة وتشبيهم إياى بالشحاذ الذى أحب بنت السلطان ، ونصيحتهم لى .. بأن أشيل على قدى وبأن أمد قدمى على قد الحافى .

أثارتنى منهم هذه السخرية وأنا الملىء بالثقة والكبرياء ، وزادتنى تعلقا بالفتاة .. رغم أنى لم أكن أبصرت منها أكثر من شبح متشح بالسواد ، وعينين .

تتألقان من خلال البرقع الأبيض ، ورغم أنى لو أبصرتها بين عشرات سواها لما أستطعت أن أميزها من بينهن .

وهكذا أخذت سخرتهم تشعل النيران فى صدرى .. حتى انتهى إلى الأمر إلى أن أوهم نفسى أنى قد أضحيت صبا مولعا ، وأنه قد استبد إلى داء الحب وأحرقتنى نيران الهوى .

وفى ذات يوم جلس الرفاق حولى يتسلون بالسخرية منى واستشطت غضبا ، ودفعنى الطيش والحمق إلى أن أقسم لهم أننى أستطيع — لو شئت — أن أنال من الفتاة ما أريد ، وأن الفتاة تحببى ، وما من عقبة هناك تستطيع أن تقف بينى وبينها .

وضج الرفاق بالضحك ، وأبدى أحدهم استعدادا لأن يراهننى .. إذا أنا أستطعت فقط أن أحدثها ، وأحسست بأن كبريائى قد جرحت وكرامتى قد أهينت ، فقبلت الرهان .

وذهبت إلى الدار فى ذلك اليوم وقد شرد منى الذهن ، واستبدت إلى فكرة واحدة هى لقاء الفتاة .

وكنت أعلم أن رب القصر — والذى لم أشك فى أنه أبوها — أمير تركى هو الأمير برهان نور الدين ، وأخذت اعتصر الذهن عله يدلنى على طريقة أدخل بها الدار .. لألقى ربه .

واستيقظت فى اليوم التالى وقد تملكتنى الحيرة واستبد إلى الضيق ، وأخذت أقلب إحدى صحف الصباح فوق بصرى فى إحدى صفحاتها على خير استرعى التفانى وأخذت أعيد قراءته مرارا وتكرارا .

كان الخبر ينبئ أن بعض مجوهرات ابنة الأمير التركى برهان نور الدين قد سرقت من القصر وأنهم يشكون فى أن بعض الخدم قد سرقها ويعدون كل من يرشد إلى السارق بم جائزة مالية كبيرة .

وأحسست بفرحة بالغة ، وبدا لى أنى قد وجدت إلى غرضى منفذا ، وأن

المجوهرات الضائعة ستكون مطيتى إلى الفتاة ، وبدأت أفكر فى أفضل الطرق التى أتبعها .. وأخذت أضعب الخطط وأحبك التدابير .
وأخيرا استقر بى الرأى على خطة مثلى لم أشك فى أنها ستوصلنى إلى بغيتى ، وتركت الدار متجها إلى المدرسة كعادتى عابرا شارع الخليج ودلفت فى الحارة المفضية إلى جنيئة رشيد والمسدودة بسلسلة مشدودة بين حجرين لمنع دخول العربات ، ثم اتجهت إلى المبتديان مارا بالقصر ، ثم اتخذت طريقى فى شارع الدواوين حتى المدرسة ، ولكنى بدلا من الدخول إلى المدرسة دلفت إلى حجرة عم سعيد البواب القائمة على باب المدرسة وكان بينى وبينه ود مقيم فأعطيته بضعة قروش وسألته أن يعيرنى بعض ملابسه .

ولم تمض بضعة دقائق حتى تسلفت من المدرسة ، وقد ارتدبت أحد قفاطين « عم سعيد » وعلت رأسى عمامة بيضاء وانتعلت فى قدمى مركوبا أحمر وأمسكت فى يدى مسبحة أحرك حباتها بين أصابعى ، وفى اليد الأخرى كيسا ملأته بالرمل والحجارة ووضعت فى جيبي كتشينه ابتعتها من حانوت أمام المدرسة .

وهكذا قصدت القصر كأنى أحد فقراء الهنود ..
ووقفت أمام الباب وقلت للحارس فى لهجة آمرة إننى أريد أن أقابل أحدا من أهل الدار فى أمر هام .

ووقفت أناقشه برهة ، وأنهمته أنى سأظهر سارق المجوهرات المفقودة وسأدلمهم على مكائنها ، ولكنه نظر إلى فى سخرية وأنبأنى أن أهل الدار قد خرجوا .. ثم سمعته يتمم لنفسه قائلا : « بلا نصب بلا تدجيل » .
ولم أشك فى أن الرجل كاذب ، وأن أهل الدار ما زالوا بالدار وخاصة أنى سمعت صوتا نسايا يصيح من الداخل : دعه يدخل يا عم إبراهيم .

وفسح لى الطريق فدخلت إلى الداخل ، وعبرت الحديقة متجها إلى مدخل القصر ، وصعدت بضع درجات رخامية ثم وقفت أمام الباب المتسع وقد تملكنتى

الحيرة والخشية .

ووصل إلى الصوت النسائي آتيا من شرفة في أعلى المدخل آمرا إياي بقوله « اطلع » .

وعبرت الباب إلى صالة فخمة رجة الأرجاء واتجهت إلى سلم في نهايتها ، وصعدت إلى الطابق العلوى .

ووقفت أمام دهليز طويل أقيمت على جوانبه أعمدة رخامية ، وترددت برهة ولم أجسر على التقدم ، حتى عاد الصوت النسائي يأمرني مرة أخرى « ادخل » واتجهت إلى مصدر الصوت الذى كان ينبعث من حجرة في نهاية الدهليز ووقفت بباب الحجرة مشدوها مأخوذا .

من يصدق هذا ؟ .. أنا لاشك حالم واهم ؟ فإن الواقع لا يمكن أن يصدق على الإنسان بمثل هذا الكرم ، وتلك الأريحية ؟

لقد وجدت نفسى فى مخدع نسائي تتضوع منه رائحة عطر ينفذ من الأنوف إلى القلوب ، ليسكر النفوس ويدير الرؤوس ، ووجدتها هى .. قد اتكأت على فراش فى وسط المضطجع !!

إى والله .. لقد وجدتتها هى .. بلحمها ودمها .. لا طيف ولا شبح ولا خيال :

وجدتها هى لا بالحيرة ولا بالبرقع .. بل بقميص حريرى وردى .. قد انحسر عن كفتين كالمرمر .. وعنق كالعاج .. قميص قد أبدى من الفتنة والسحر أكثر مما ستر .

وتملكنى من رؤيتها نشوتان .. نشوة فتى فى مخدع أنثى شبه عارية ، ونشوة الانتصار الخارق والفوز المبين على الصحاب الهلافت الذين لا يقدرورنى حق قدرى .

ووجدت ذهنى الأحق يشرد برغمى عما هو فيه من متعة أشبه بالأحلام ليعدو وراء الرفاق ويتلهف على وجودهم ليشهدوا بأعينهم ما قد بلغه العبد

الفقير .. وأخذت أتخيل أقوالهم الواحد بعد الآخر ، وتصورت ألفاظ التبجيل والاحترام التي سيخلعونها على .

ويبدو أن وقتي أمام الفاتنة محملاً فيها عيني كالأبله قد طالت .. فقد وجدتها تهتف بى فى دلال وعجب كأنها تحاول أن توقظنى :

— هش .. انت يا سيدنا .

وأفقت من شرودى وأجبت مرتجفا :

— محسوبك يا هامم ...

— ما بالك هكذا مبهوتا مشدوها ؟

— لا مؤاخذه ، إنها نوبات سرحان تصيبنى من آن لآخر . عندما أكون تحت سلطان الوحى .

— وحى !!؟

— أجل .. وحى الأسياد .. الذين يلهموننى المعرفة .

ويدا عليها شئ من الفزع وصاحت متسائلة :

— بسم الله الرحمن الرحيم .. أعليك أسياد ؟.. أنت مريوح ؟

— لا .. لا يا ست هامم .. إن الأسياد لا يركبوننى ، ولكنى أركبهم .. إلى

أنا الذى على الأسياد ، وليسوا هم الذين على .. هم المريوحون منى .. ولست أنا

مريوحا منهم .. إلى أستخدمهم فى معرفة ما أود معرفته .. إنهم فى الواقع بالنسبة

لى .. ليسوا سوى خدم ، ولكنى أسميهم أسيادا من باب التجاوز ليس إلا .

— آه .. إذا فأنت الذى تسيطر على الأسياد ؟

— بالطبع . إلى أستدعيهم وقتما أحب وهم لا يرفضون لى طلبا .. بل

يجيبوننى إلى كل ما أريد .

— وكيف يجيبونك ؟

— بالرمل والودع والورق ، وكل ما يخطر لك على بال .

— مدهش !!

- وأستطيع كذلك أن أقرأ الكف والفنجان .
- يا سلام !!
- لا يستعصى على شيء في عالم الغيب .. إني أعلم ما تقدم وما تأخر !!
- أتستطيع أن تعرف من الذى سرق الجواهر ؟
- بل وأحضره مكبلا بالأغلال ، هذه مسألة بسيطة .
- إلى هذا الحد ؟
- بل وأكثر من ذلك .
- وما اسمك .. وكيف تعلمت كل هذا ؟
- خاشم مخموش مخماشيان .
- وانطلقت منها قهقهة عالية ، ثم استعادت الاسم ثانية بقولها :
- خاشم إيه ؟
- محسوبك خاشم مخموش مخماشيان ، يضرب الرمل ويشوف الودع ،
- ونبين زين نبين .
- ولكن الاسم ضعب جدا .. ألا تستطيع اختصاره ؟
- تستطيعين أن تناديني كالأسباد .
- وكيف ينادونك ؟
- يدللونى .. بشوشو .. أو خشخش .. أو محمحم .. أو خشاخش
- أو خشخوش .. أو شمشم .. أو ..
- كفى .. كفى .. شوشو أفضل .
- أمرك يا هاتم .
- ولكنك لم تقل لى كيف تعلمت كل هذا ؟
- من فضل رنى يا هاتم .. إنها مهنة ورثناها أبا عن جد .. كل عائلتنا
- كذلك .. كانت جدتى رحمها الله تسرح فى الطرقات بالودع ، وكان جدى
- يفرش كيس الرمل بجوار سيدى الحبيى . أما أى فيفتح الكوتشينة بحارة الميضة .

— وأملك ؟

— الخائبة الوحيدة في العائلة ، إنها تسرح بمشنة فول نابت .
وابتسمت ونظرت إلى بطرف عينيها وقالت لى هامية .
— اجلس يا شوشو .

وأحسست بجسدى يترنخ من كلماتها الهامسة وبنظرتها الفاتنة ، وتربعت أمامها على الأرض ، وأخذت أبسمل وأصبح وقد أغمضت عيني ثم أخرجت الأوراق من جيبى ونشرتها بجوارى ووضعت الكيس جانبا وقلت متسائلا وأنا أهتر بمخنة ويسرة :

— تحت أمرك .. الأسياد فى خدمتك .. كيف تريدان أن أظهر السارق ؟ .
بالودع .. بالرمل .. بالورق .. ؟ أأمرى .
— دعنا من السارق الآن .. هناك شىء أهم .. أريد أن تنبئنى بمستقبلى ..
أريد أن تقرألى الفنجان .

ثم مدت يدها إلى فنجان على منضدة بجوارها وأردفت قائلة :
— قل .. ماذا ترى ؟

وأخذت أتأمل فى الفنجان وأفحص بعين خبير .. وحاولت أن أتبين به شيئا .. فلم أجد سوى نغبشة سوداء وبيضاء ويقايا بن راسبة فى القاع .
وبعد طول فحص وتدقيق بدأت أقول فى صوت خافت ملؤه الخطورة :
— هذا كثير .. الطريق أمامك طويل معقد ، والحساد على جوانبه يضعون لك العقبات وينصبون لك الشراك .

— يا ساتر يا رب .

— وأرى أحدهم شديد الخطورة ، يحاول أن يمسك بك ليعوقك عن وصول هدفك ، وأنت ممعنة فى الجرى تحاولين التخلص منه .

— وهل سأتخلص منه ؟

— ستخلصين منه وستبلغين هدفك بعد عناء وجهد .

— الحمد لله .

— وأمامك خير كثير سيأتيك عن طريق لا تتوقعينه ، وهناك سفر قريب ستعودين منه إن شاء الله بالسلامة .

وهكذا أخذت ألقى الأقوال التي يلقيها كل قارئ فنجان .. أقوالا عامة تنطبق على كل إنسان في كل زمان ومكان .

وانتهيت من تلك الأقوال وهي تهز رأسها مؤمنة على ما أقول ، ثم صمتت برهة وأخذت أحرق في عينها ثم أعدت النظر في الفنجان وقلت في صوت أشبه بالهمس :

— أرى أمامك في نهاية الطريق عاشقا يتلهف عليك ، وأنت لاشك تتلهفين عليه ؟

وسمعتها تهمس :

— صفه لي .

وبدأت أصف العاشق .. أو على الأصح أصف نفسي قطعة قطعة ، أسمر الوجه ، أسود العينين .. حالك الشعر .. وهكذا .. لم أترك شيئا لي إلا وصفته .

ونظرت إلى نظرة حاملة متمنية ، وهمست ضاحكة :

— ألا ترى في ذراعه سبحة ؟

وضحكت وقلت لها :

— وفي قلبه لوعة وفي نفسه حرقة .

ثم نهضت إليها واقتربت منها في رفق ، ومازلت أنظر في الفنجان ، وسمعتها تسأل :

— أتراه يقترب !!؟

— يقترب ويقترب ، ويحتويك بين ذراعيه ، ويضع على شفئك شفتيه ، ويمزج أنفاسك بأنفاسه .

وساد الصمت ، وكيف كنت أستطيع النطق وقد قرنت القول بالفعل ،
وأطبقت بشفتي على شفتيها ورحنا في نشوة لم يكن يوقظني منها إلا رغبتى في أن
يرانى أصحابى الساخرون .

وفجأة .. وجدت الباب يدفع بشدة .. وسمعت صوتا نسائيا يصيح بغضب
جنونى :

— كيف تستقبلين عشاقك فى مخدعى .. أيتها اللصة المجرمة .. لقد وضع
الأمر ، لاشك أنك أنت التى سرقى المجوهرات وأعطيها لعشيقك هذا .

وصمت الصوت لتمالك صاحبه أنفاسها وعادت تهمدر :

— وهكذا لا نكاد نخرج حتى تتركى العمل والكنس والمسح وتستلقى فى
الفراش وترتدى ثيابى ، وتستقبلين عشاقك .. وهكذا كنت سأظل مخدوعة فىك
لولا عودتى المفاجئة .

ونظرت إلى الباب فوجدت الفتاة صاحبة الحبرة والبرقع الأبيض ، وأدركت
أن كل ما حدث لم يكن إلا عبث خادمة ، وأدركت كذلك مبلغ حرج موقفى
وأنتى سأتهم بأنى عشيق الخادمة ، وأنى مشترك معها فى سرقة المجوهرات .

وأقبل من بالدار على صوت الصراخ .. ووقفت والخادمة تتبادل النظرات فى
حيرة وخوف وقد أمسكت بالفنجان فى يدي وسمعتها تهمس سائلة :

— ماذا تراه يفعل فى الفنجان ؟

وأجبتها فى أسى وحسرة وأنا أنظر فى الفنجان :

— أراه سيذهب إلى القسم ويرى علاقة ويبيت على الأسفلت .

وصمت « الباشكا » وأخذنا نحملق فيه منتظرين أن يتمم القصة ، ولكنه لم
يتكلم وأخذ يهز ركبته فى سكون فقلنا نستعشه :

— وبعدين ؟!!

— ولا قبلين .. ذهبت إلى القسم ، وبت على الأسفلت حتى حضر إلى أبى
وعلم الحقيقة وتوسط فى إخراجى .

ونظرنا إلى ابن أخته نستفسر منه عن مدى ما فى القصة من حقيقة .
وهز ابن أخته رأسه وأجاب :

— الشطر الأخير .. صحيح مائة فى المائة .. فإن والدتى طالما أخبرتنى أن له
سوابق كثيرة فى الذهاب إلى القسم والمبيت على الأسفلت .. أما بقية القصة ..
فالله بها أعلم .

فى سىدى العترىس

ويتحرك الرجل من باب البيت متجها إلى الحانوت ..
فاذا علمنا أن البيت كائن فى شارع سلامة فى حى السيدة ،
وأن الحانوت يقع بجوار سىدى العترىس استطعنا أن ندرك
أن المسافة بين البيت والحانوت لا يمكن أن تتجاوز بحال من
الأحوال أربعمائة ياردة .

« يا نحف القوام ، التجافى حرام » .

هبط « السيد على » درجات السلم بخطواته المتثاقلة وهو يترنم بأغنيته الحبيبة
إلى نفسه ، البغيضة إلى زوجته السمينة أم أحمد أو « أم لقندى » كما تطور الاسم
أخيرا عندما أصبح ابنها أحمد موظفا فى الحكومة .

والسيد على ، هو الاسم المختصر لسلسلة أسماء يستطيع الإنسان معرفتها
بوضوح فى اللافتة المعلقة على حانوت العطاراة الذى يملكه صاحبنا بجوار سىدى
العترىس ، وهى السيد على أحمد إسماعيل المهيّاص .

« المهيّاص » هو لاشك لقب العائلة الكريمة ، بدليل أن الرجل يأبى التنازل
عنه ، بل يضعه موضع المفاخرة ، وهكذا نستطيع أن نجزم أن الجلد الأول للسيد
على كان مهيّاصا ، وأنه قد ورث عنه أبرز صفاته التى دعت الناس إلى تسميته بها
وهى المهيصة ، وأن صاحبنا كان مهيّاصا ابن مهيّاص .

والرجل المهيّاص — حسبما أعرف — هو الهليلبى الضاحك العابث ، الماجن ،
الذى لا يحمل هما ، ولا يثقل على نفسه بأحزان ولا أشجان .

(بين أبو الزيش ...)

وهكذا كان السيد على .. لا يذكر إنسان أنه قد رآه متجهماً الوجه أو مقطب الجبين ، وما سمعه أحد يثور أو يغضب ، وما خرجت من فمه ألفاظ السباب إلا على سبيل المزاح والفكاهة .

ولا أظن هناك حياة سهلة هينة منتظمة لا تغيير فيها ولا تبديل كحياة السيد على ، ويكفى المرء لكى يكتب تاريخ حياة مثل هذا الرجل أن يصف منها يوماً ، ثم يضربه في عدد أيام حياته .

وهو يفاخر دائماً بأن كائناً من كان — حتى ولا أم أحمد نفسها — لم يستطع أن يعكر صفو حياته ، أو يحول مجراها السهل المستقيم ، وهو يضبط مواعيده وحر كاته وسكناته مع الشمس .. ويقول إن الشمس لا تحتل ولا تتوقف ، يستيقظ مع شروقها وينهض متمهلاً متباطئاً لأنه لا يرى في الحياة ما يستدعى العجلة ، وما تفعله في يوم يمكن أن تفعله في يومين ، بلا جهد ولا مشقة ، ويقول في تبرير فلسفته :

— ولا تعد ولا تحز ، إن الحياة طويلة .. فلا تهك نفسك بالعدو فيها ، فتصل إلى النهاية مبهور الأنفاس محطم القوى .. سر على مهل ، وتكلم على مهل ، وكل على مهل ، وافعل كل شيء على مهل .. يكفي أن تفعل في حياتك نصف ما تفعل .. فلو أنك ستسير في حياتك ألف ميل ، وتكلم مليون كلمة سر نصفها وتكلم نصفها .. ليس هناك ما يجبرك على أن تفعلها كلها ، فلن تقدم في نهاية حياتك كشفاً بكمية ما فعلت ، ثم .. ما الذى نفعله في حياتنا ؟ شر وخير وشرنا أكثر من خيرنا .. وأى شيء نأخذ منها شقاء وهناء .. وشقاؤنا أكثر من هئائنا .. وبم نخرج منها ؟ بلا شيء .. ونصف اللاشيء لاشيء ، وما دمنا كلنا سنتساوى في الخروج منها . فلم اللهفة إذن . وعلام اللهفة !!

وهكذا أقنع السيد على نفسه بالألا يتعجل قط . وأنه يكفي أن يفعل في حياته الطويلة نصف أو ربع ما كان يجب أن يفعله فيما لو تعجل . ويحصل منها على نصف السعادة ، ونصف الشقاء ويخرج منها في النهاية باللاشيء الذى سيخرج

به كل إنسان .

وينهض الرجل من فراشه بعد أن يقضى فيه فترة عقب الاستيقاظ وهو مفتوح العينين يفكر في هدوء ، ويتجه إلى دورة المياه فيمضى بها ما يقرب من نصف الساعة يقضى حاجته ، ويتوضأ ، ويدندن ، بمتهى الراحة والبطء ، ثم يمضى نصف ساعة أخرى في الركوع ، والسجود ، والتمتمة .

وفي خلال تلك الآونة تستيقظ أم أحمد على صوت دندنة السيد على ، وضوضاء المعلم عبده بائع الفول وهو ينادى : « الفول والبيلة السخنة » وتحامل على كتل الشحم المتراسة على جسدها حتى تصل إلى المطبخ ، وتوقظ « البت سنيه » وتسلمها القرش والحله لتبتاع الفول قبل أن ينصرف المعلم عبده ، ثم تأخذ هي في عمل الشاى .

ويتم السيد على صلاته ، ثم يخلع عنه الجلباب والطاقيه ويتناول القفطان من فوق المشجب فيسطحه على جسده ، ويشد وسطه بالحزام الكشمير ، ثم يرتدى الجورب فوق ساق السروال الصوفى الذى لا يخفله صيف شتاء ، ويدس رجله في الحذاء الأستك الفاقع اللون ، ثم يضع العباءة على كتفيه والطربوش فوق رأسه .

وتنتهى بذلك عملية اللبس التى لا يكف خلالها عن الدندنة والانتقال من أغنية إلى أغنية من « يا نور العيون آنست » إلى « سباني سهام العين » إلى « متع حياتك » ، ثم يتجه بعد ذلك إلى المنضدة . حيث يلقي التحية إلى امرأته :
— صباح الخير يا ست أم احمد .

ولا ينتظر هو إجابتها .. بل يأخذ موضعه أمام طبق الفول الذى يتصاعد منه البخار .. ثم يلقي في وسطه بما يقرب من رطل زبدة .. ولا تمضى بضع دقائق حتى يكون الرغيف المقمر ، وطبق الفول ، ورطل الزبدة ، أثرا بعد عين .

ويلتفت السيد على بعد ذلك إلى برطمان مليء بالعسل النحل ثم يزيل عنه الغطاء متسائلا :

— هل خلصت القراقيش يا أم أحمد ؟
وتهز أم أحمد رأسها علامة على أنها نفدت ، ويعود السيد على إلى التساؤل :
— والغريبة التي ابتعتها من الحاج صبح ؟
— خلصت ..

ويهز « السيد على » رأسه أسفا ثم يتوكل على الله ويتناول نصف رغيف آخر فيغمسه في برطمان العسل ، ثم يطوح به في جوفه ويطلق تكريعة إيذانا بانتهاء الطعام ، ويعقب على التكريعة بحمد الله ، وينظر إلى أم أحمد الصامته المتربعة على إحدى الشلت تصنع لنفسها القهوة على السبرتو ويقول معلقا على التكريعة نيابة عنها :

— صحة وعافية .. خف تعوم !!..
وينهض السيد على بعد ذلك فيتناول عصاه الثقيلة ، ثم يلقي تحية الوداع إلى أم أحمد .
— اقعدى بالعافيه يا أم احمد .
ثم يجيب على نفسه ، فهو واثق أن امرأته لن تكلف نفسها مشقة الرد عليه :
— يعافى بدنك ويرجعك بالسلامه .
ثم يهبط الدرج خطوة خطوة مترنما بأعلى صوته : « يا نحيف القوام التجافى حرام » .

وتتصعب أم أحمد وتهز رأسها في أسف وتتمتم قائلة :
— ربنا يزيدك هيافه .. صدق من سماك « مهياص » .
ولا يكاد السيد على يصل الفناء حتى يتذكر أنه نسي شيئا — فهو لابد أن ينسى شيئا .. أى شيء — ويصيح بأعلى صوته :
— يا أم أحمد .. أم أحمد .. لقد نسيت الشال .. أرسله مع البت سنية .
ويتحرك الرجل من باب البيت متجها إلى الخانوت .. فإذا علمنا أن البيت كائن في شارع سلامة في حي السيدة وأن الخانوت يقع بجوار سيدى العتريس

أن ندرك أن المسافة بين البيت والحانوت لا يمكن أن تتجاوز بحال من الأحوال أربعمائة ياردة ، ومع ذلك فالسيد على لا يقطعها في أقل من نصف ساعة ، فهو أشبه في حركته بالمستعجله يتوقف أمام كل حانوت ، وينثر التحيات والتكاث ذات اليمين وذات الشمال .

ويصل الرجل إلى حانوته بسلام .. وهو لا يملك إلا أن يصل بسلام .. فليس في طريقه ما يستطيع أن يعكر عليه صفو السلام .. وقد مضى عليه ما يقرب من عشرين عاما لا يتحرك في يومه إلا هذا المشوار يقطعه مرة في الذهاب ومرة في العودة .. أما فيما عدا ذلك فهو في حالة سكون تام .

وينهض بندق — صبي السيد على ومعاونه في الحانوت — من فوق الرصيف ويستقبل معلمه بأبلغ آيات الترحيب ، والتحيات والتقاريج .. ويبدو لنا بوضوح أن الصبي يماثل معلمه كثيرا في المهيسة وأنه يعوضه عما يفتقده في أم أحمد . ويتناول بندق مفتاح الحانوت من السيد على فيفتح الباب ثم يبدأ بإخراج لشوات ورصها في الخارج ، ثم يضع بينهما مقعد السيد على الشبيهة بالمصطبة .. وينطلق في إحضار الشيشة .

وتتناثر التحيات من السيد على إلى الحوانيت المجاورة وبالعكس ، ويصبح لخواجه « أستيك » صاحب القرن الأفرنجي المواجه للسيد على :

— صباح الخير يا خبيبي ، ميت خلاوه .

— صباح العيش الفينو يا خواجه نجف .. صباح الكيك والشريك والفطير وعجوه والبوريك .. ميت فل .

— ميت فل عليك يا خبيبي .. ازيك ؟

— رضا .. ازيك انت ؟

— الحمد لله .

— مبسوط ؟

— مبسوط كثير .

- كده تعجبني .. حد واخذ منها حاجه .. يا خواجه الناجه كوا الناجه .
— ان شاء الله يكون القراقيش عجبوك .
— عجبوني وبس .. دانا كلت صوابعى وراهم ، يا سلام يا خواجه أستيک
عليهم بالعسل النحل .. أحلى من شفايف المره الحلوه .. دقتهم ؟
— القراقيش ؟
— لأ .. شفايف المره الحلوه ؟
— أنا مش بدوق غير مدام أستيک .
— الله يكون فى عونك ، وهى دى شفايف دى . دى مقدده ، زى جلد
الصرم .
— أنا مش بشوف غيرها .
— يا أختى ان شا الله تنطس فى عينك ، مابتشوفش البنت سنيه ؟
— سنيه مين ؟
— سنيه ملين .. يا ضلالى .. بتشوفها والا لا .
— أيوه بتشوفها .
— بتشوف شفايفها .
— بتشوف شفايفها ، لكن مش بندوقها .
— وبالنظر كده .. مش يعجبوك .. مش طعمين ؟
— يا سلام يا خاج على .. خاجه كويس كتير ، خاجه خلوه ، زى العسل .
— ما هو ذا الى انا بقوله .. مش تقولى شفايف مدام أستيک .
— دى ست طيبه .
— إحنا قلنا حاجه ، مانا برضه عندى واحده زيبا فى البيت ، لكن برضه
الواحد لازم يشبرق نظره ، إن الله جميل يحب الجمال .. وحلوه .
— لا إله إلا الله .
— أيوه كده اتصلح . ابعت لى وقه قراقيش .. عندك فطير بمعجوة ؟

- عندى خاجه خلوه خالص .
- ابعت عشره .. وحبشهم بشوية سميط على شوية أرغفة فينو .. يا الله كده اعمل لك همه .
- وينتهى حديثه مع الخواجه أستيك ، فيميل بجسده ميلا خفيفا ليواجه المعلم أبو دومه الخضرى صائحا به :
- نظره يا معلم .. مفيش صباح الخير ؟ احنا كنا نايمين فى حضن بعض والا ايه ؟
- ويترك المعلم أبو دومة الزبائن الملتفة حوله ، ويواجه السيد على ضاحكا مصفقا بكلتا يديه صائحا فى مرح :
- يا ميت صباح القشطه ، لا مؤاخذه يا معلم سيد .. الزبائن كانوا حاجيين نورك .
- ثم أخذ يزعج الزبائن جانبا وهو مستمر فى صياحه :
- اوعى يا جدع كده منك له .. خلونا نشوف القمر . يا أهلا وسهلا .
- أهلا بيك ، ازاي الواد دومه ، مش اتصلح شويه على الدوا اللى اديتهولك امبارح ؟
- اتصلح قوى ، الحمد لله ، والله كان فيه الشفا أحسن من ميت دكتور :
- دكتور مين خليها على الله ، دى وصفه عارفها من ثلاثين سنه . حاجه متخبش أبدا ، وازاي البت الصغيره ؟
- بتبوس إيديك ، والله فرحت قوى بالحلقى اللى بعته لها ، يلزمك إايه النهارده ؟
- والله نفسى فى صينية تورلى ، وعازي تشكلها تشكيله على كيفك ، شوية فاصوليا ، على شوية كوسه ، على شوية بطاطس ، بس البطاطس بتاع امبارح كان وحش .
- دا كان شوال وخلص . غشنا فيه ابن الأرويه حنفى . وعازي إيه كمان ؟

— أهو شوية كرفس على شوية جزر ، حبش بقى تحببشه على كيفك ، هو انا ح اوصيك .

— خليها على الله .

وهكذا ينتهى من الخضرى ، ثم يميل بجسده إلى الاتجاه الآخر فيواجه محروس الجزار فيلمح صبيه وقد أخذ يعلق اللحوم فيصيح به :

— واد يا عكشه .. أمال فين المعلم ؟

ويحييه المعلم محروس صائحا من داخل الخانوت :

— صباح الفل يا حاج .

— صباح الدوش ، وبيت الكلاوى .. إنت مالك مستخبي النهارده كده

عامل زى الست المزيره . اظهر وبان عليك الأمان .

وبرز المعلم محروس بجسده الضخم ووجهه الأبيض الأحمر ، وجلبابه الطويل الملوث بآثار الدماء وهو يهلل صائحا :

— أهلا وسهلا .. يا مرحبا .. لازمك إيه النهارده ؟

— عايزك تنقى لى حته من الموزه . حته ضانى مشفيه ، أحطها على صينية

تورلى ، وعايز كام ريشه .. بس وضبهم على كيفك .

— حاجه تانيه ؟

— لا .. كفايه كده .

— أنا حابعتلك شوية مبار وحتة نخ ، ويكره اعمل حسابك حاجهز لك

شوية كوارع على كيفك .

— يا سلام عليك .. تعجبينى فى توضيياتك .

— أقل ما فيها يا حاج .. دانئت خيرك علينا كلنا .. أمر بس .

— عشت يا معلم .

ويحول الدقة بعد ذلك إلى اليمين قليلا فيغدق تحياته على الحاج معتوق تاجر الزبدة

ويخبره أنه كان يوشك أن يأكل أصابعه وراء الزبدة عندما وضعها على الفول .

. وهكذا لا تمضى بضع دقائق حتى يكون السيد على قد قضى حوائج الدار وهو جالس في مكانه وبمسبب الشيشة بين شفثيه يشد منها النفس تلو النفس وهى تكرر كأنما تجاوبه الضحكات .

ولا يشعر السيد على أنه محروم من شيء .. فهو يرى أحفاده الثلاثة كل يوم عند عودتهم من مدرسة محمد على ، وينعم بتدليلهم والحديث إليهم والضحك معهم ويمتدح كلا منهم قرشا قبل أن ينصرف .. أما ولده أحمد — أو أحمد أفندى بعد أن أصبح موظفا — فهو يراه كل أسبوع عندما يحضر يوم الجمعة لتناول الغداء معه هو وزوجته وأولاده في الدار .

ولاشك أن خير ما يكشف لنا عن سر ذلك الهدوء والنعم الذى كان يشيع في نفس « السيد على » ، هو ذلك الحديث الذى دار بينه وبين « الحاج معتوق » عندما كان الأخير يفضى إليه ذات مرة بهوموه ، ويشكو من مرارة الحياة .

قال السيد على وهو يهز رأسه وقد شاعت في وجهه ابتسامة ملؤها الإيمان :
— الحياة حلوة يا حاج معتوق .. إن المرارة في أفواهنا ، ومن كانت المرارة في فيه فإنه « يجد مرابه الماء الزلالا » الحياة سهلة لمن لا يركب الصعب .. مستقيمة لمن لا يعوج ولا يلتوى .. هينة لمن يخلص .. لينة لمن يؤمن .

خذنى مثلا يا حاج معتوق . لقد مضى على عشرون عاما وأنا جالس في مقعدى .. لقد توقفت أنا ، ولكن الحياة لم تتوقف .. لقد سار كل شيء بهدوء في مجراه الطبيعى .. كأحسن ما يكون .. تزوجت امرأة طيبة .. ليس فيها من عيب نسوى أنها لا تضحك ولا تتكلم .. لا بأس عليها .. سأضحك أنا وسأتكلم .. أنا أنجبت منها ابنا حبيبا .. من خير الأبناء .. عييه الوحيد هو شدة شبهه بأمه .. عبوس صامت .. لا عليه .. لقد ذهب إلى المدرسة ، ونجح وتخرج في المدرسة ، وأخذ الشهادة ، وأضحى موظفا ، وتزوج ، وأنجب أطفالا .. كل هذا وأنا جالس هنا .. أضحك ، وآكل ، وأتحدث ، ولا أحمل هما . لقد أنجبت ابنا وأحفادا أحب إلى من نفسى .. ماذا كنت أستطيع أن أفعل أكثر من هذا ؟

إن الحياة حلوة يا حاج معتوق .. دعها تسير ، ودعها تكيف نفسها كما شئت ، لا تعقدها فإنها بطبيعتها سهلة .

تلك هى فلسفة السيد على وذلك هو سر بشاشته وهدوء باله وطمأنينة نفسه .. هو يجلس ، ويترك الحياة تسير هينة لينة سهلة ، فى مجراها الطبيعى . ولكن هل طبيعة الحياة حقا تجرى سهلة ؟! أم أن ذلك منها محض خدعة ومحض إغراء ؟

ترى ماذا حدث بعد ذلك لحياته السهلة المستقيمة ؟
عثرة بسيطة ، والتواء من التواءات الحياة .. لقد حادت الحياة فجأة عن طريقها المستقيم .. فأجبرته على أن يركب الصعب .
أجل .. لقد مات ابنه .. أو على حد تعبيره .. زلت قدمه فى معبر الحياة فهوى إلى الفراغ .

لا يهمنى كيف مات ، ولكن الذى يهمنى هو كيف أضحى السيد على بعد أن مات ولده الحبيب .

لقد ذعر فى بادئ الأمر كما يذعر إنسان يفاجأ بصرخة أو لكمة وهو يجلس فى هدوء ، ولكن لم تمض بضعة أيام حتى بدأ يتجلد ويتما لك ، واتخذ مجلسه فى الخانات مرة أخرى محاولا الضحك والحديث .. كأن لم يحدث شيء .. أو كأنه نوى أن يرغم الحياة على أن تعود سهلة هينة .

وجلس إليه الحاج معتوق يعزيه ويطيب خاطره .
وضحك السيد على قائلاً :

— كلنا لها .. إني لم أتعب فى شيء .. لقد جلست هنا وتركت الحياة تجرى ، ولقد أخذته الذى وهبه لى .. أليس للمعطى الحق فى أن يسترد ما أعطى ؟
وهز الحاج معتوق رأسه متعجبا من قوة جلد الرجل . لقد كان يتحدث عن ابنه وحشاشة كبده كما يتحدث عن رغيف خبز أو قطعة نقود .

وهكذا لم يكف السيد على المهياص عن الضحك والمهيسة ، وبدا للناس أنه قد قهر الحياة ولوى عنانها لتعود إلى الطريق المستقيم .

وقد يكون الرجل استطاع ذلك حقا ، ولكن بأى ثمن !!؟
إنه ابنه الوحيد .. ثمرة خمسة وثلاثين عاما من الجهاد الصامت .. ابنه الحبيب العزيز .. الطيب الحنون الكامل . الذى لم يزل لسانه بعبث مرة واحدة .. كيف يهون عليه أن يفقده فى غمضة عين ..؟

وزاد هزال الرجل يوما بعد يوم . ووهنت قواه ، وهو ما زال يضحك ويغنى .. حتى كف ذات يوم عن الضحك والغناء .

لسبب واحد :

هو أنه لم يكن يستطيع الضحك ولا الغناء ، ولا حتى الحياة ..! .
وشيعت جنازته بالبكاء والعويل .

وبدا البكاء والعويل نشازا فى جنازته ، وهو المهياص الذى لم تنبس شفتاه يوما بغير الضحك والغناء ، وسارت الجنازة من ميدان السيدة إلى مدافن الإمام .
وفى الطريق خف البكاء وخفت العويل ، وأخذت الجنازة فى الاقتراب من المدفن عندما لاحت على جانب الطريق — فى إحدى الدور القرية من المدفن —
أعلام خضر وعلائم زينة .. احتفالا بعرس .

ودقت الطبول .. وصدحت الموسيقى .. وانطلقت الزغاريد .

والنecش يهل على مدخل المدافن ويشرف على قبور الموقى ..!
وهكذا خرج المهياص من الحياة — كما عاش فيها دائما ، تحف به مواكب الضحك والسرور ، وبدا كأن الأحياء أبوا إلا أنه يشيعوه بالزغاريد أو كأن الموقى يستقبلونه بدق الطبول ونفخ المزامير .

ولو استطاع الرجل أن يزيح غطاء النعش لأطل برأسه على القوم وهتف بهم :

« دقوا الطبول ودقوا .

» إنها فرحة اللقاء .

« لقاء الغائب الميموس من لقاءه في أرضكم الفانية .. !
« أيها البائس المحزون .. خل عنك .. ليس في الحياة ما يستحق العناء .
« كلنا إلى التراب نصير .. أو إلى السماء نطير .. فأرح نفسك ، ودع الحياة
تسير » .

يا أمة ضحكت

الإهداء

إلى الحمير الكبار ...

أهدي كتابي هذا ...

فمنهم قد استلهمت وحيه .. واستوحيت حكمته .
ليتهم يقبلونه .. ويقرأونه .. ويفهمونه .. ثم يستحون .. ويعقلون
ويندمون على ما يفعلون ..
أيها الكتاب .. ألا هل بلغت ؟!
لا أظن .. فما من حمار منهم سيعترف بأنه حمار ..
واحسرتاه على الإهداء .. لقد ذهب هباء في هباء .

« يوسف السباعي »

مقدمة

تعودت عندما أطبع كتاباً أن أبدأ الكتاب من الملزمة الثانية . أعنى أن يبدأ أوله من الصفحة التاسعة تاركا الثمانى صفحات الأولى لعنوان الكتاب وللأهداء والمقدمة ... وغير ذلك من « التحايش » التى تعود الكتاب أن يرصعوا بها كتبهم كأقوال الشعراء وحكم الحكماء ، التى تمتُّ — أو قد لا تمتُّ — إلى كتابهم بصلة ... ولكنهم يضعونها لمجرد الوهم .

وفعلت بكتابى هذا ما تعودت أن أفعل .. وانتهى عبد السلام من جمع الكتاب وطبعه .. ولم يبق إلا الملزمة الأولى .. وبدأ إلحاحه على بأن أسعفه بالإهداء والمقدمة حتى ينتهى من الكتاب وينفض يده منه .

وأخذت أفكر فى الإهداء ..

ترى لمن أهديه ؟ ..

إلى أئى ؟ ..

انه يستحق منى أن أهدي إليه — لا كل كتاب — بل كل كلمة أكتبها .. فما أراى إلا بقية منه .. أو تتمه له .. وما تحرك قلمى للكتابة إلا بفضلله .. وما تأثرت فى حياتى بشيء كما تأثرت بكتايبه : الصور ، والسمر .

ولكنى سبق أن أهديت إليه كتابى الأول « أطياف » وأخشى أن يمل منى كثرة الإهداء .

إلى من إذا أهديه ؟ ..

إلى أحد كبار الكتاب ؟ .. ولكنى أخشى أن أتهم بالتملق ...

وأخيرا فتح الله بالمُهْدَى إليه .. وأرشدنى إلى صاحب الفضل الأول على فى هذا الكتاب وأنا شخص لا أنكر الفضل على أصحابه .. فقد سبق لى أن أهديت كتاب نائب عزرائيل .. إلى عزرائيل .. فلم لا أهدي كتابى هذا .. إلى الحمير الكبار ؟!

وانتهيت من الإهداء .. وبقيت المقدمة .. وعاد عبد السلام يستحثنى .. وجلست لأكتب .. فإذا بى أصاب بعسر تفكير .. وإذا الذهن والقلم قد أضربا عن الكتابة .

وعبثا حاولت أن أكتب المقدمة .

وجلست أفكر فى حل المسألة .. فخطر لى خاطر .. لم أشك فى أنه سيخرجنى من ورطتى .. بل ويمكننى من إصابة عصفرين بحجر .
لم لا أطلب إلى أحد كبار الكتاب أن يقدم لى الكتاب ، فأستفيد من تزيين الكتاب باسمه .. وأستفيد من بعض كلمات المديح التى لاشك سيخلعها على وأخيرا يوفر على مشكلة التقديم .

وبدأت أستعرض الكتاب .. لأنتقى منهم واحدا .

وقفز إلى ذهنى اسم « توفيق الحكيم » .. فهو أحبهم إلى نفسى وأقربهم إلى قلبى .. وقلت : إن الرجل كما يبدو من كتابته .. لطيف ذكى ، كريم ، خفيف الدم .. وهو لاشك سيقدم لى الكتاب عن طيب خاطر .

ولم تكن لى به معرفة شخصية . فذهبت إلى صديق لى وله .. وأنبأته بما أريد .. فهز رأسه فى أسف وأخبرنى أنى مخدوع فى صاحبنا ، وحذرنى — وهو صديق له — أن أذهب إليه أو أطلب منه شيئا .

وظننت الصديق على خصام مع الكاتب الكبير ، فذهبت إلى آخر لم أشك فى أن العلاقة بينهما على خير ما يرام .. فأجابنى الصديق بأن كاتبنا الكبير لا يتحرك إلا بالنقود .. وأنى إذا أعطيته مائة جنيه فإنه لاشك سيرحب بكتابة التقديم .

وضحكت .. وقلت للصديق : إنه لو كان لدى مائة جنيه لو فرت على نفسى

مشقة الكتابة .

وفكرت بعد ذلك في « المازنى » .. وهو أكرم الكتاب ، وأدمتهم خلقا ، وأكثرهم تواضعا .. وعلاقتى به على خير ما يرام .. ولكنى لم أشك في أن الرجل مشغول .. وأنه لن يجد من وقته متسعا لقراءة الكتاب .. وأنه قد يقدم الكتاب — مجاملة لى — دون أن يقرأه .

وفكرت في « العقاد » .. فخشيت أن يشتمنى في مقدمة كتابى . وفي « طه حسين » فخشيت أن يحتاج لجزء أول يكتب فيه المقدمة .. على أن يكون كتابى الجزء الثانى أو لا يكون بالمرّة ...

وفكرت في « عباس حافظ » .. وهو أكثر الكتاب صلة بى .. فقد كان صنو أبى .. ولكنى خشيت — من فرط حبه لأبى وإخلاصه له — أن يكتب المقدمة عن أبى وليست عنى ولا عن كتابى .. فأضيق أنا بين الخليلين الوفيين . وفكرت في « زكى مبارك » .. وهو صديق أبى أيضا ، ولكنى لم أشك في أنه سيكتب المقدمة لا عن أبى ، ولا عن الكتاب .. بل عن نفسه .

وأحسست في النهاية بآس شديد .. ونظرت إلى قلمى وقلت :
« عيب .. اختشى . اكتب أحسن لك .. فما حك جلدك مثل ظفرك ..
ما لك ولكبار الكتاب تستعين بهم على تقديم ما كتبت .. لو كان فيما كتبت خير .. فما بك من حاجة إلى من يقدم لك .. ولو كان به سخف .. فماذا تجدك القشرة البراقة .. تكسوها اللباب الأجوف » .

ولكن ما بالناس قد شغلنا حين المقدمة فيما لا علاقة له بالمقدمة أو الكتاب . أيها القارئ .. عذرا .. فما عاد هناك مكان لكتابة شىء ، فأليك الكتاب .. اقرأه .. واكتب أنت ما شئت من تقديم . والسلام عليكم ورحمة الله .

« يوسف السباعى »